

www.kotobarabia.com

الغدير

أحمد محمد حميدة



www.kotobarabia.com



الفجر

رواية

أحمد محمد حميدة

فهرس

- (١) عن الكبت ... والأسى - ٤ -
- (٢) المرشد..... - ١٤ -
- (٣) الحكايات..... - ٢٤ -
- (٤) سد خاة - ٣٦ -
- (٥) لصوص تائبون - ٤٦ -
- (٦) تحت إبط..... - ٥٧ -
- (٧) بوابة للقهر - ٥٩ -
- (٨) التصالح..... - ٦٠ -
- (٩) مواسم الفلوس - ٦١ -
- (١٠) الوشاة..... - ٦٥ -
- (١١) الموت..... - ٦٧ -
- (١٢) المدهوش - ٧٩ -



(١)

عن الكبت ... والأسى

صدقوني ..

ما كنت أرغب في كتابة هذه الحكايات، فقد عشت بينكم عمراً ليس بالقصير، عمراً شحنتموه أنتم، بالحيرة، والغرابية، والغموض، عمراً كان ذهني مقفلاً فيه عنكم، إلا أنه كان جميلاً. يومكم، كان يعاش بالسنة، كل لحظة تعاش كما يجب أن تكون ..

صدقوني ..

إنني أعتذر عن غبائي وتسرعني ، انشغال رأسي، ذلك الذي يجلب لي المصائب.

صدقوني ..

ما فكرت يوماً أن أعريكم، أو أنزع عنكم الحجاب، أو أعرف الناس بكم، لكن شعور الكآبة المحبط بعزلتي النائية بسطح غرفتي، تولاني، والفراغ المستبد فيما بين السماء والسطح، تولاني، دفعني مرغماً لأفرغ شحنات الكبت والأسى، على الورق.

لم يعد رأسي يحتمل وطأة الكتمان .. وحش الحرمان الرابض بي، السر المخبوء بداخلي، والحب المجهد لـ "دودي"، كان علي أن أصرخ، أعتزف بأنني خائن.

وأني، أحببت، على غفلة منكم، دودي، تلك التي تقيم معكم، تلك الأم الشابة، الزوجة، العشيقة والمعشوقة، إنني آثم ...

وأنتم أيضاً، آثمون ..

أودعتمونني في التوهج والشوارع حتى الانصهار، لأعالج اللوعة والوجد بغرفتي النائية تحت نير كتب معلقة، على أمل واهٍ ..

ما كانت دودي تود لي الهلاك ، أو الهروب، أو الابتعاد، فليس بالإمكان الانفلات من قبضاتكم.

وما كنت أود لها التشهير، أو الاندماج في، وهدم بيتها الذي هدمتموه أنتم.

إنني نادم على كتابة هذه الأوراق.

ها هي ملفاة أمامكم، تحت أقدامكم .. بأرض الشارع، والغرفة، تطلب التمزيق والحرق ..

وأناشد كل من يعثر على ورقة منها أن يحرقها، فنشرها لن يجدي .. فإنني لن أنتفع بها،

ولن تتجيني من أيديكم المتطاوله، والموت، ربما أكون بمنجى عند حرقها .. لكن كيف؟ عبث.

وكل الكتابة عبث، الكون، والحراس، عبث، عبث.



مؤامرة بعث الموتى

شلت حركتي، توقفت مأخوذاً، واهن البدن، مستنفذ القوى بشركة النحاس، العائد منها
توّاً، متخذاً أسهل الطرق للوصول إلى بيتي المتطرف بحذاء السور السلبي الشائك.
دائماً ما كنت أتساءل، في نفسي، عما يمكن تواجده في حقل، به ثلاث نخلات، محاط
بسور من السلك الشائك، وكأنه معسكر ملغوم، محظور الاقتراب منه، .. الذي رأيته ..
كان مقتولاً بالفعل .. ينزف الدم من جسده الملقى بحذاء السور، دم متخثر ودافئ،
يحيط بجسده الممدد على ظهره .. نعم، كان جسده ممدداً، وملوثاً بالدم والطين، ملتوي العنق،
مشرع الذراعين، مفنجل العينين، يبخلق نحو الصف الآخر من الحقل، صف العمارات الطويلة
المرصوفة، مظلمة كانت وصامتة، يسودها الغموض والغرابة.
ساورني خوف، ابتلعت ريقاً جافاً وأدّرت وجهي، وتخيلت عينيّه تنظران نحوي،
مباشرة، فالتفت، رأيت عيناً مغمضة، وأخرى مفتوحة..
ابتعدت خطوة، وقد فكرت في الجري.. لكن عينه المغمضة انفتحت، فارتعدت، وقلت
في نفسي، ربما لا يزال حيّاً، ويمكن إسعافه، .. لكن الدم المنبثق عن بدنه الثابت يكفي
لموته..

كان القمر طالعاً، وبعض ضوء شاحب ينبعث من لمبات متباعدة ،،
يبدو أنه قتل منذ حين، منذ ساعة ، أو أقل، وأن القاتل لا بد وأن يكون على مقربة من
الجثة، وهو الآن مختبئ بمكان وينتظر ذهابي، أو أنه ينتظر صراخي، مع أنني لن أصرخ،
ليس فقط لشفت الشركة لقوتي، بل، أيضاً لسيطرة الرعدة على مشاعري، ولمداومة العينين،
المصرة، على الانفتاح والاعمضاء، فقد خيل إليّ أن العينين تتحركان بدأب متعمد، وأنه
ينظر إلى وجهي، بحقد، كأنه يحثي على الانصراف، أو الغيرة لكوني واقفاً، بينما هو ممدد،
مخدول، مقتول..

وليت وجهي شطر البيوت، على رغمي، وكان لا بد لي من صرخة.. لكن نظرته
المحدقة بكنمان الغيظ..

تحركت - أو هكذا خيل لي - ليزيد من خوفي، حينئذ، توقعت قيامه، والتفاف قبضته
حول رقتي،،

وأدركت أن هذه مجرد تخيلات مرعوب، وأن رأسي يجسد لي أشياء غير معقولة،
فانطلقت بخطواتي المتعثرة لأبتعد..



بدأت أجري .. ملتفتاً - بين الحين والآخر - إلى الخلق، وأحدث نفسي بأنه حي، وأنه يتابعني، يقترب مني لأتوقف عن الجري، يقوم ويجري خلفي، وعند التفاتي إلى الوراء يستلقي ممدداً ..

تفاقت تخيلاتي ومخاوفي وتمنيت لو أجد أحداً من سكان العمارات المصمتة ليؤنسني ..

وكنت أجري، متصوراً أنني أقطع الشارع، هذا الشارع المستطيل، الممتد أمامي، وكأنني في كابوس، فهو يمتط، وكأنني لم أنقذ خطوة، وأن الجنة تتبعني بالفعل، وسوف يطبق على رقبتني الآن، ويقتلني، .. توقفت، وشيء من الهدوء يطامن قلبي ..

كان هناك رجل يقترب مني ..

حين رأيته، عن قرب، أدركت أنني أراه دوماً بالمنطقة، فهو ممن يعيشون هنا ..

قال لي بصوت شرس مشوب بالدهشة:

- مالك .. ماذا حدث؟

أشرت له نحو المكان الملقاة به الجثة، وقد تقطعت أنفاسي، ابتسم، فوضح جلد وجهه السميك متغضناً ..

قال بعد أن تأملني وطلع ساعته ..

- عملوها. ؟ عال ..

قالها وكأنه يحدث نفسه، ثم وضع ساعته فوق أذنه وتركني في استغرابي .. ثم عبث في جيب جلبابه وهو يقول، وكأنه يفشي إلي بسر خطير:

- لا تقل لأحد أنك رأيته ..

- إنه مقتول هناك ..

قاطعني بصوت تنمو به نبرة غضب ..

- أعرف .. أعرف ..

- أنت قاتله؟

- هو لم يمت بعد .

- إنها جثة، جثة غارقة في الدم !

ضايقه انفعالي، وقد تنامي غضبه، قال ..

- اسمع ما أقوله لك ..



ونظر لساعته لثالث مرة، وفكرت بأنه القاتل، فقد بدا عليه الارتباك، وقال..

- كأنك لم ترها. أفاهم أنت؟ إنها جثتي، وأنا حر فيها..

قلت مستغرباً..

- لكن كونها هكذا! عرضة للكلاب ..

قاطعني ..

- أنا حر ..

وخطوت خطوة لأتجاوزة قليلاً قلت.

- أنت حر..

فاستوقفني شاهراً بوجهي مطواته الحادة النصل، قال مهدداً.

- هذا عملي، أسمع ؟ امش في سكتك. وكل عيشاً.. سوف أتصرف أنا بمعرفتي ..

أفاهم أنت..؟

وكيف يكون الفهم؟

تابعت سيري ببطء وعلى حذر، وكان يعاتب نفسه بغضب شديد..

- راحت عليّ نومة .. كان يجب أن أصرخ منذ ربع ساعة، كان يجب العثور عليه

من بدري .. سوف أحاسب على هذا الإهمال..

وأيقنت - والحال هكذا - أنه هو القاتل، وعليه حالاً، أن يوارى جثته في مكان ما..

وأخذت على عاتقي مهمة إبلاغ الخبر لأهالي الحي، فالقتيل، بالتأكيد، من ناس المكان ..

ومهما كانوا الأهالي الشرسون، إلا أن عمليات القتل لن ترضيهم،،

حين تباعدت خطواتي، فوجئت بصرخات الرجل ملأ جنبات الليل الأسود، ..

- قتل .. قتل .. الحقوا .. قتل..

وألجمت الدهشة لساني.. توقفت فوق درجات السلم ، ثم واصلت الصعود بين الدهشة

والصراخ..

رشقت مفتاحي بثقب باب غرفتي الخشبي،، وتناهى إلى سمعي عويل نساء محترقات

القلوب، عويل رتيب كأنه لحن جنائزي سابق التخطيط، ثم أصوات جهورية تصادر العويل

وتمنع النساء عن البكاء..



عدت مسرعًا إلى أسفل.. دفعني شعوري بضرورة التواجد في المكان كشاهد عيان
أوحد، خاصة وأن دودي ستكون ضمن المشاهدين، كانت النسوة واقفات برصيف العمارات..
والرجال مظلمو الوجوه، واقفون بحذاء الحقل ..

لم تكن دودي متواجدة.. قلت حين دنوت وأصبحت أتوسط الفريقين:

- إنني رأيت ..

صرخت النسوة، توارى صوتي.. قلت..

- لقد رأيت الجثة.. و..

تصايح الرجال متعمدين مصادرة صوتي..

- اسكت.. اسكت..

غاضبون كانوا وملتحون.. اندهشت وقلت..

- أنا رأيت الجثة وكان ..

دفعني حسن رامبو بحركة مباغطة، فارتددت خلفاً، وتوقفت، موقناً بأن أولئك - حتمًا
من أهل الجنوب المقيمين بالإسكندرية، وأنهم لن يغمض لهم جفن حتى يثأروا لدم فقيدهم
الغالي، سمعتهم يقولون..

- الميت يخلصنا.. ونحن أحرار في موتانا..

- توكل أنت على الله ..

حذق أحدهم في وجهي وسألني بغيط،

- هل رأيت وجه الميت؟

قلت على الفور..

- طبعًا..

- تقدر تتعرف عليه لو رأيته..؟

توجست وقلت في نفسي، ليسوا بأهله جميعًا، وأنهم مشتركون - بالتأكيد - في مسألة

قتله.

- طبعًا.. ممكن أتعرف عليه.. لكن ما أهمية معرفتي به وقد مات؟

وانقلبت سحنة الرجل .. صرمني بيده..

- اذهب إذن.. نعرف نحن القاتل والمقتول..

مسنى رعب ما..



وبدعوا يدفعون جسمي بأجسادهم الكبيرة، يدفعونني بالتناوب، وهم يتساءلون،

- جديد هو المكان؟

- ساكن هنا من مدة.

سألني أحدهم بصوت خشن..

- ماذا تعمل يا ولد أنت؟

وارى الخوف استغرابي، فقال أحدهم:

- يبدو أنه يعمل في شركة النحاس.

- يعني غلبان؟

- متزوج؟

- عايش لوحده..

منحوني ظهور الجهامة، تاركين برأسي وعيد رءوسهم المتحجرة وأعينهم النارية..

قلت في نفسي.. مالك أنت وموتاهم؟ وعزوت أفعالهم هذه لمصابهم الأليم.

وابتعدت، وصوت أحدهم يصيح في الخلاء، في الريح، ليسمع كل النائمين من سكان

الحي:

- أخي مات،.. البقاء لله وحده.. وغدا أخوكم يموت، الموت علينا حق.. وتعاليت

جملة الموت علينا حق، وكأنما يرمز لشيء ما، لإنسان ما، مخبوء بمكان ما..

* * *

ولجت باب غرفتي، وفكرت فيما يمكن أن يحدث لو لم أحضر الجنازة، فمهما حدث

منهم، فأنهم حزاني، وينبغي الوقوف إلى جانبهم، ولا ضرورة لأخذ مواقف عدائية مع أناس

شرسين..

نعقت في الشارع صفارة عربية النجدة.. ثم صفارة الإسعاف، ثم حركت تموج بالليل،

وأصوات تعلو...

غفوت قليلاً..

أيقظني صوت "ميكروفون" الجامع القريب ينادي لصلاة الفجر..

كان الشارع غارقاً في سكون رهيب.. لا أحد.. لكن البيوت المصمتة بدأت تلفظ

بعض الرجال الملتحين،.. يرتدون الجلابيب البيضاء.. كانوا ضخاماً.. يتمتمون ويدعون



أسنانهم بقطع السواك، متوجهين شطر الجامع القريب، المقام حديثاً بوسط البيوت، بناصية شارع السلام..

لم يتركني شيطان الشهامة اللعين أثناء صلاة الفجر.. تخيلت أنني أحد الأبطال الذين عليهم استنهاض الهمم، واستخلاص الحق من الباطل، أن أقول للسادة المصلين ذوي الذقون والمسابح بأن قتيلاً، بالليل قد قتل..

أفعدوني بنظرات الشراسة، وتوقعت بأنهم يnehون عن الحديث في المسجد.. لكنني قلت..

- لقد كان الأمس...

التفتوا نحوي وكأنني ارتكبت إثماً..

- لكنني ..

أطلوا في النظر، وما أدركت بأنهم يريدون إسكاتي وما يودون سماعي إلا حين خرجنا من المسجد.. كانوا يتمتمون، وحبات المسابح تتساقط كأنها ندف من ثلج تساقط على جموح الغضب، ..

وبين هاجس الدهشة، والغضب الدفين.. غفوت..

أهم خائفون مني.. أم أنا الخائف؟

أم متفقون لحد البعد عن المهازل الدنيوية؟..

في الصباح رأيت رجال "الفراشة" يدقون بالأرض أعمدة بناء السرادق، سرادق كبير بعرض الشارع.. ثبتوا على جانبيه سماعات ضخمة، ثريات فاخرة.. مقاعد جلدية.. ثم جاء الرجال الأقوياء.. رجال الأمس.. وتوقفوا في صمت.. لم يكن بالصمت الحزين أو الفرح.. كان هناك نغش مركون بأحد مداخل البيوت، يخطط فتحاته رجل ليس بالغريب علي..

دخلت السرادق على وجل، فوجوه الأمس الغضبي متجهة ما تزال، لامسوا يدي الممتدة إليهم بقرف.. قعدت، وحدقاتهم الدائرة في محاجر العيون منبعجة الأجفان ترمقني متعمدة، فتشاغلت بالنظر إلى الشارع.. كان ضابط الشرطة الشاب قادماً.. يتقدم بعض الرجال لابسو الزي المدني، صافح الرجال مصطنعي الأسى وجلس.. إلى جوار "علي الإنجليزي".

همس الضابط في أذن علي:

- ألن تكفوا عن قتل بعضكم؟ هذه القصة أصبحت مشهورة..

قال علي الإنجليزي بخبث واضح:

- لقد رأيت الجثة بنفسك ليلة أمس.



قال الضابط:

- كانت مغطاة بملاءة، ولم أكشف عنها..

قال علي بنفس الخبث:

- ولماذا لم تكشف عليها؟

- لأنني أعرف الألاعيب التي تلعبونها، وسوف أكشفكم ذات يوم.

- الميت مات يا بك.

نهض الضابط وكان يهمس:

- لعله يموت بحق.. سأحييه مرة وأقبض عليه.

قال علي بتحد..

- المحيي هو الله،

والمقري يتلو.. جلس رجل إلى جواني.. اندهشت حين نظرت إليه.. أدركت بعضاً

مما يفعله هؤلاء الشرسون.. مال الرجل على أذني، كان هو صاحب جثة الأمس، قال..

- تعرفني؟

لفني الصمت المدهوش، أعاد سؤاله،

- تعرفني؟

قلنت مأخوذاً..

- لم أرك..

- أبداً..؟

- أبداً..

- ولو عرفتني؟

- أكون مخطئاً..

- القتل يشبه لي؟

- ماذا تريد أن يكون أنت؟

- يشبه لي؟

- أبداً.. لقد مات..

- ولو كان حياً؟



- لا أعرفه.
- ولو عرفتة؟
- ماذا يحدث؟
- أقتلك..
- تركني واقفاً، مذهولاً..
- كيف أصبح حياً وقد كان جثة؟!
- وختم المقرئ تلاوته.
- نهض أحد الملتحين، تحدث في "الميكروفون"..
- وسوف ندفن الجثة، بإذن الواحد الأحد بمقابر عامود السواري، وسوف يؤخذ العزاء هناك..
- استغربت.. لماذا عامود السواري بالذات؟ نحن في باكوس ومدافن أبو النور أقرب، أو مقابر المنارة..
- ورفع الرجال النعش، تبعه المعزون.. ساروا جامدين بين عويل النساء، بدعوا المسيرة، شارع مصطفى كامل، شارع أبي قير، العامود، توقفت المسيرة..
- كان الضابط الشاب واقفاً بالباب ينتظر قدومنا.
- لمحت أمارات الغيظ والارتباك بوجه علي الإنجليزي، استغربت لارتبائه الواضح..
- كنا نتخطى نتوءات الأرض بأقدامنا رافعين النعش عاليًا - يحيط بنا بعض الرجال ذوو الزي المدني.. ثم هوجم النعش.. مزقوا قماشه ونظروا في الجثة المتكفنة،
- وبين عملية النظر والتمزيق، شبت معركة اندهشت لقيامها المفاجئ المتعمد.
- كانوا يقولون:
- يدفن في مقابر الصدقة.
- بل مقابرنا موجودة.
- وتشابكوا بالأيدي.. تراحموا بشكل شرس، دفعوا الرجال ذوي الزي المدني وحملوا النعش، وتقدموا به في حين ولى الضابط وجهه المتجهم لشواهد القبور، وقفل راجعاً، يتبعه رجاله المتربون، كنا قد بلغنا بالنعش حافة القبر المفتوح..
- كانت الجثة تتحرك تحت يد اللحد.. هبط بها إلى القبر بحذر شديد، وضعها بأسفل،
- ثم صعد وهو يحمل صرة مستديرة. كأنه خلع عنها الأكفان..



تناول علي الإنجليزي الصرة بين أعين المشيعين اللذين تعمدوا الوقوف حول القبر،
كجدار دائري سميك.

ثم صعد اللحد ساحباً بيده يد صاحب الجثة الذي يهمس.

- البضاعة سليمة ؟

قال علي:

- سليمة.

ألجمت الدهشة لساني.. هو، هو الملعون صاحب جثة الأمس، متوعدني في السرادق،
ها هو يصعد معافى - من الحفرة، كأنه لم يكن بالنعش منذ قليل، ها هي أشياءكم البيضاء
المخدرة، ها هي..

ها هو سكركم المطحون..

ها هو يخرج من الحفرة.. يودع بقلب النعش..

النعش الفارغ العائد إلى أرضكم. حي الفولي، باكوس.



(٢)

المرشد

في الليل، ذبحوا في الشارع كبشاً.. شيدوا على النواصي سماعات، للريح.. توقظ النيام وتبعث الصخب،..

بعد قليل، جاءت سيارات فخمة، عكست أضواء الشارع والثريات فبدت وكأنها المرايا.. فتحت أبوابها، لفظت أنواعاً شتى من الرجال غربيي الملامح والأبدان، رجال ناطحت رءوسهم الثريات المدلاة، رجال من أرض أخرى، زمن آخر، ليسوا من الملوك ولا من الصعاليك، هيئاتهم الهائلة تنذر بالخطر والنفوذ والمال.. يتحدثون ويتحركون ويضحكون بالمال.. استقبلوا بحفاوة وتقدير، اقتعدوا الكراسي التي بالصدارة.

والذين بالداخل تمايلوا.. تلاقت أبدانهم، آذانهم والأفواه.. راحوا يتهامسون.. الهلباوي جاء.. جاء الهلباوي، والذين تناثروا حول السرادق قالوا..

كنت برأس الشارع، يطويني الصمت المدهش، مأخوذاً بذلك الذي يدور.. لمحني علي الإنجليزي، ثم مال على أحد الأقطاب، ثم همس الآخر وهو ينظر ناحيتي عبر المسافة القصيرة فأحسست بأنني أدوب، بين ذاك الحزن المصطنع، أدوب، ترى ما بهم؟ ماذا يدور بخلدكم؟.. ما جئت لمجالسة أصدقائي المعمرين، الذين يتسامرون تحت نافذة دودي.

لكن بعضهم مال على البعض، وبدءوا يتحدثون بهمس بالغ الأهمية، وكأنهم يتآمرون جميعاً على تدمير العالم.. لكنني علمت فيما بعد أن أكثر اجتماعاتهم وأمورهم الخفية تتم في مثل هذه الظروف.. تعقد الصفقات على هامش الحديث العادي، وأن هذا يحدث عند كل عملية وبالتناوب،،

دفعني أحد أبناء الحي، متعمداً.. قال:

- ألن تدخل؟

امترجت دهشتي بالخوف. فقلت:

- لا .. شكراً .. هذا ليس مكاني.

ابتسم في خبث وهو ينظر نحو شارع البستان وقال:

- أعرف أين هو مكانك..

- لا يهمني ما تعرفه عني..

وسرت، مولياً له ظهري، قال:



- أنت حر .. ولكنهم سيغضبون منك..

وجدتني مشدودًا نحو بيت دودي الواقع بيسار السراق، كان شباكها السفلي مواربًا.. قصيرًا كان بطول القامة، مجاورًا لكشك عم مرعي بائع السجائر، ملجئي في وقت الكآبة، أجدها دائمًا مستندة على الأفريز، تتطلع إلى المارة، بعينين واسعتين باحثتين، قابعتين في وجه أبيض مستدير شهبي الأوداج،، فأخذ مجلسي إلى جوار عم مرعي، أحدثه ويحدثني، موقفًا بأنها ستشارك في حديثنا، يأسرني صوتها ويثير لدي أشجان زماني البعيد.. بيتي المسكون بامرأة نصف الشيطان، تحدثني في أمور عادية، صوتها الأنثوي مزجه المكان بنبرة عطف مخشوشنة، كانت تشملني بارتجافة وجد، أسألها عن أحوالها وأطفالها الأربعة المنطلقين في الشارع كالكتاكيت، عن زوجها المحبوس.. فتعز رأسها، بأن لا شيء عاد يهم .. لكنني أشعر بذلك الحزن الكامن داخلها.. ويأتي أطفالها من حولي، يتحسسون جيوبي، أقبلهم وأشتري لهم الحلوى من عم مرعي..

ألصق بهذه القطعة من الأرض، أنسى كل شيء من حولي، حتى تلك الأعين البعيدة التي يمكن أن تفسر حديثي والتصاقي بما تهوى أنفسهم.. لم أفكر يومًا في التقرب إليها حتى الولوج إلى بدنها، كان في عينيها عالم غريب من الصعب إدراكه.. أهى غجربة؟ ملامحها الهادئة لا توحى بذلك.. كنت أتخيلها كما أريد أن تكون.. أتخيلها أحيانًا في عزلتي، إلى جواري.. امرأة يتسم القلب ريحها، في أجواء الشر المستحكم والمنتظر حدوثه في كل حين.. أتخيلها بأطفالها يلهون حولي وهي تلهو وتمضغ اللبان.. أنا الوحيد بغرفتي النائبة.. أحمل إليها الهدايا والطعام، وأمنحها نقودي .. لتطهو لي..

سألت نفسي يومًا، لماذا هي دون نساء العالم، لم أجد إجابة، أسألوا القلب لو كان يستطيع النطق،،

ناولني عم مرعي سيجارة وكأنه يعيدني إلى الوجود،

لفظت هي قشر لبها على الأرض، وقالت:

- نعمل لك شاي؟

ضحك عم مرعي وقال، وقد لمحت بعض العيون التي بدأت تراقبني عن بعد:

- ابنة حلال .. لكن انتظري حتى يأتي العجوزان:

- أبي يهبط الآن، وعم منع على وصول.

كان عم منع قادمًا بخطوه البطيء الذي يعثره السعال، قال مرعي:

- هذا موعدهما.. لا يتخلفان عنه..



ثم ظهر الحاج السباعي على عتبة البيت بوجهه المتغضن، يتوكأ على زمنه الموجل في القدم.. كان عم مرعي قد أعد لهما مقعديهما، صافحاني وجلسا، تنهدا.. ثم تطلع السباعي نحو السرادق وهز رأسه، وتنهد.. شاركه عم منعم النظر، ثم التتهد، ونظر كلاهما إلى مرعي، وابتسما في تعجب.. جلس عم مرعي وهو يلم كورنيش قفطانه، قال:

- دنيا يا حاج سباعي.

سعل الحاج السباعي وقال:

- نعم يا سيدي، دنيا..

وكننت أدرك أنهما يتكهمان على أصحاب السرادق، فانتبهت، إذ كانا يتحاوران بأعين ملؤها الأسرار.. أشعل عم مرعي عود ثقاب وقال:

- أين الزمن راح؟

سألت الحاج السباعي وكننت أشعر نحوه بعاطفة:

- أرايت الذي حدث أمس؟

فوجئت بوجوم يكسو الوجوه.. كمموا الأفواه بأيدي معروقة، وكأنهم صعقوا لسؤالي.. اختلسوا النظر نحو السرادق، قالوا في همس،

- يا رجل .. ما لنا نحن .. كن في حالك..

امتدت يد .. دودي،، بصينية الشاي، نهضت لأخذها، كان صدرها ينحني فوق الأفريز، محبوساً، طالعني شق النهدين، قناة غائرة في فتحة الثوب. لم أستطع غض بصري.. كننت متطفلاً.. نظرت هي إلى وجهي واعتدلت، تسد بيدها القناة وكأنها تعاتب نظراتي.. أيمن أن يظل هذا النهر العذب بلا مبحر؟ بلا شارب؟ قالت بجرأة:

- نحن لا نخاف يا أبي.

نظر إليها الحاج السباعي بتهكم وازدراء:

- أنت لا تخافين .. نعرف ذلك، لكن نحن نخاف..

- لم أفهم ما يقصده الحاج السباعي.. أردت أن أفهم، لكن عم مرعي غير مجرى الحديث في حين هبت دودي، ضلفة شباكها في غضب واضح.. قالت من وراء الشباك:

- نحن لا نسرق ولا نقتل.



قالتها وكأن شيئاً مقرفاً يكمن في صدرها.. ولزموا الصمت، كأنهم سلموا بقولها هذا..
ثم تهامسوا بأنها مهما كانت، امرأة، وفتحت الشباك وأطلت، نظرت إليها مؤيداً قولها بضم
قبضتي:

- الخوف هو العيب الوحيد فينا.. لكن الخوف أحياناً يولد القوة لأصحاب الكرامة.

اعتدلت هي في النافذة، وشملتني بنظرة تساؤل، قالت بصوت هادئ:

- كلام جميل، ماذا تعني به؟

كنت أعلم أنها تجهل القراءة والكتابة، قلت:

- لو حافظ كل واحد منا على كرامته، أصبحنا قوة، قوة.

هزت رأسها علامة على الفهم، قالت:

- صحيح أنت صحفي؟

ضحكت أقول:

- أبداً.. أنا مجرد هاوٍ.. هاوي كتابة، وكتب.

- كتب..؟

- نعم.. كتب..

- ماذا تفعل بها؟

- أطلعها.. وأكتب.

- ماذا تكتب؟

- أكتب عن العيون الجميلة.

- ماذا تكتب عن العيون الجميلة؟

- كلام فاضي، في كلام فاضي.

كان الرجال الثلاثة يتهامسون. وهي تقول:

- يعني ممكن تكتب عني؟

- تعرفي إذن أن عيونك جميلة؟

- طبعاً، أعرف..

كتمت رجفة بأعماقي وقلت ضاحكاً:

- أكيد سوف أكتب عنك، حين أعرفك.



- ألم تعرفني بعد؟
- سبحت في عينين معاتبتين، قال الحاج السباعي حين وجدني أطيل النظر:
- أنت تذكرني بأيام الشباب، والله.
- قال عم منعم:
- كانت هذه الأرض صحراء قاحلة.
- قال عم مرعي:
- يقطعها نصفين شارع مسفلت طويل يصل حد مصر.
- قال الحاج السباعي:
- دنيا..
- قال عم مرعي بصوت خافت:
- كانت صحراء واسعة، قبل أن ينشئوا كوبري الناموس.
- تدخل عم منعم يقول، وقد تناسوا رأسي المولى شطر دودي:
- كم سنة؟ أربعون؟ خمسون؟
- قال الحاج السباعي: وكان أكثر الاثنين قوة..
- هذا الكلام من ستين سنة.
- كان صوت المقرئ يعلو،.. سألت الحاج السباعي:
- لماذا لم تذهبوا لتقديم العزاء؟
- الجنازة حارة والميت كلب.
- مال السباعي على أذن عم مرعي وقال:
- الأخ لا يعرف شيئاً بعد.
- ثم همس يقول لي:
- هؤلاء، لهم كل أسبوع جثة،
- انتفض الحاج السباعي بعد مقالته هذه. ثم نظر عم منعم حوله وقال:
- للحوائط آذان يا حاج.
- هم لهم دنياهم، ونحن لنا دنيانا.



وأطبق صمت مشبع بالتوتر والحذر، دارت خلاله أكواب الشاي، وأختلس إلى دودي النظر.. كانت ترقبني وتحصر عليّ حركاتي، قلت:

- وأنتم.. أستم منهم؟

قالت هي على الفور، بغضب:

- نحن منهم؟

ولوت شفتيها السفلى استغرابًا، ثم سألتني كأنها تختبر فهمي:

- تعرف أنت من يكونوا هؤلاء؟ لن تعرف طبعًا.

وحط الصمت، كانوا يحاذرون ويحاولون التكتّم.

سألت الحاج السباعي:

- أقصد أنت.. ألسنت من أهل الحي؟

قاطعني عم منعم قائلاً:

- الحي هو الله.

ثم سأل الحاج السباعي:

- ما رأيك في شاي ابنتك؟

تجاهل - عن عمد - سؤال عم منعم، وقال لي:

- نحن في هذا الحي منذ أمد بعيد، لا نسأل ولا نُسأل، دع الملك للمالك.. ثم قال لعم

منعم:

- ابنتي..؟

أجاب متهمكماً، ثم نظر نحوها وقال:

- نعم .. أفضل شاي،..

وغيروا مجرى الحديث .. تجاذبوا أحاديث أخرى، كأنهم يحمون من رءوسهم كل ما

يمكن أن يكون قد تعلق بالذاكرة.. قلت في نفسي.. إنهم خائفون.. خوف شد كل حواسي،

انتباهي، كفوا عن الكلام بغتة، ونظروا ناحية السرادق. ثم قال عم منعم:

- سنقول لك ذات يوم.

قال عم مرعي:

- إذا كان في العمر بقية.

قال الحج السباعي وهو يضع كوب شايه الفارغ:



- نحن سكان الأرض الضعفاء.
- أضاف عم مرعي:
- نعم..
- قال عم منعم وقد بدت عليه سمات القرف:
- حاملو أسرارهم،
- همس الحاج السباعي يقول:
- شبان هذه الأيام لا يعرفون عنهم شيئاً.
- نحن القدامى تحملنا الكثير..
- قال عم مرعي:
- يجب أن يعرف أبنائنا أصل هؤلاء.
- مفروض.. طبعاً..
- قامت دودي، ثم وضعت صدرها المندفع على الذراعين والإفريز، نظرت متعمداً..
- فاعتدلت.. ثم وضعت الصدر مرة أخرى فشعرت بأنها تثيرني، ارتبكت مديراً شطر السرداق وجهي، ولمحت طرف لسانها تغيظني وتبتسم فاطماً قلبي، قالت:
- لا تقولوا له شيئاً..
- ثم همست لي:
- أتريد أن تكتب عنهم..
- قلت لها صادقاً..
- بل أريد الكتابة عنك .. أنت ..
- وماذا ستكتب عني؟
- قلت لك.. حين أعرفك جيداً.
- إن كان الموضوع هكذا فلن تعرفني أبداً..
- قال الحاج السباعي بنفس النبرة التي تهكم بها على ابنته..
- أيجاد بالحي من لا يعرفك؟ الحي كله كله ..
- أنا مت هواجسي بصوتها الهامس:
- لن يفعلوا معي شيئاً..



وتحركت عيناها نحو السرداق بشكل يثير الشك..

واحتوانا الصمت.. صمت فرضه قدوم بعض الشبان كانوا يقتربون مسلطين نظراتهم المتسائلة والفاحصة نحونا مباشرة، كأنهم يستغربون لعقد هذا الاجتماع الليلي المعتاد.. كان كل المنطقة تعرف بأننا نقتل بعض الوقت في السمر والتدخين والحديث العادي، إلا أن الليلة، كما توقعنا وكما توقعوا هم، لم يعد اجتماعاً عادياً.. أدركت أن الأمور قد تغيرت، وأن العجوزين يحملان من أسرار المكان ما يخافه الأقطاب.

توكأ العجوزان وقاما.. أفصحت دودي عن غضب مفاجئ، قالت:

- لماذا قمتما؟

تماسكت بنفسني ارتجافة غضب.. كان الشبان قد توقفوا على بعد خطوات.. أشعلوا السجائر بنظرات تحد.. بصقت دودي قشر لبها على الأرض بغيط..

تحرك العجوزان وتواريا فيما وراء الكشك.. استشعرت الخجل، رجالان يدنوان من حافة القبر، يخافان هكذا؟

لا بد أن سرهما أخطر مما يتصور العقل، أشعلت سيجارة، وغمزت لـ "دودي" بأنني أستهيئ بهم، وسوف أتحدثهم، فابتسمت:

- لا يهكم .. إنه فتحي "باط" وأصحابه الصياع..

فكرت، وكانوا يتفرقون بعيداً.. تباعدوا.. إلا من فتحي "باط" الذي ظل واقفاً.. أيمكن أن يكونوا مبعوثين من قبل الميت الحي؟ قلت:

- كانوا ينظرون إليك..

قالت بصوت ساخر:

- هؤلاء كلاب الحراسة.

ثم قالت بصوت منخفض:

- اذهب الآن وكأنك لا تعرف شيئاً، ستعرف كل شيء فيما بعد ..

ابتعدت قليلاً وكأنني أبحث عن الرجلين.. كانا قد تواريا، في حين تقدم فتحي "باط" من النافذة.. استغربت حين وجدته، يتحدث إلى "دودي" بشكل أقلق بالي، قلق المحب الغيور.

كتبت في أوراقي عن "دودي" هذه الأرض الحبلى بالأسرار.. هل تبوح لك بسرها الدفين؟ أليدك الشجاعة؟ إنني عشقتك، عشقت فيك القلب الأبيض، الذي لم يسطر فيه بعد كلمة حب صادقة.. كتاباً كان يفتحه الناس المحيطون بك، يدخلونه ويخرجون منه، ولم يجروا أحدهم أن ينقش عليه حرفاً بدم قلبه، كلمة عشق.. القائمون حولك لا يجيدون العشق، لا يعرفون



الكتابة.. يعرفون فقط كيف يصنعون الحب بأمزجة خدرها الشم والحشيش وحقن الماكس،
الحب لديهم امرأة تخلع ثوبها يرتحلون عبرها للحصول على اللذة، انتهاك البدن، انسكاب
الشبق فيه، وحين يستفيق، يذهب تاركاً لك عيون الغضب كأنك سلبت منه بعض قواه، وأنا
أعشق فيك هذا المكان.. رنة صوتك المتعالي يوقظ مني غفوة الاستغراق بأحيان تسليم نفسي
لمجاهل كتبي..

دائماً كنت أرقب جسدك المتبختر يتهادى في الشارع، تلملمين أبدان صغارك ليلاً،
وكنت ألحظ نهاراً شقوق الكعبين، فاشعر بالغضب إذ كنت تنتمين لهذا المكان الموبوء، نحيت
هذه الأوراق جانباً..

وانتظرت بشوق عارم أن تأتي لقوقعتي، سوف تأتي، قالت لي ذلك، تقص عليّ بعضاً
مما تعرفه.. هل يمكنها الصعود إليّ؟ توجست، وبقيت معلقاً بين التوقع والاضطراب، متمنياً
أن تأتي، وألا تأتي، فقد بدأ الشك يتسرب إليهم، ينمو فيهم، جلست، حين تأتي ستمحو بتواجدها
رغبة سماع أي شيء.. سأفعل ما لم أفعله منذ هجرت بيتي البعيد.

أكانوا يعلمون بأنني أنتظرها؟ أشعر بأنهم حولي، يمتلكون خلجات قلبي، أرتجف،
كانوا يرونها في حدقتي عيني، بجسدها المتوقد، عارية.. تخيلتها، وهم يدخلون دماغي في
تسلل، يفتشون عنها، لو فعلوا، لوجدوها تحتل تلافيفي.. سوف تأتي حالاً، ويأتون،
يضبطونني متلبساً بها، مدمناً إياها لحد الألم، سوف تأتي وقد مددت أفقيتهم على الأرض
ومشت عليها قادمة إليّ.

على الرغم مني سوف يصفعون على تلك الأفقية..

صنعت لنفسي القلقة كوباً من الشاي، وشعرت بأنني غريب قد جئت لأكشف لهم عن
مدى الإهانة والغفلة القائمين بها.

كانوا يقبعون في الأمكنة التي يمكن لأفكاري أن ترحل إليها، هم هنا في السطح، في
الكراسي، على الرفوف، الكتب الريح، مكبلون بالغضب، الشراسة، وشعور الحقد الفظ بأنهم
مختومون على تلك الأفقية الممتدة على الإسفلت، .. يقتحمون غرفتي.. مثلت قبالي بجسدها
البض، يجيئون.. تخلع ثوبها.. تتدغدغ بجسدي.. أندش.. لماذا خلعت ثوبها؟ لم أطلب منها
ذلك، كانوا يتوارون يتتاثرون كأنهم يرقبونني عن قرب أو عن بعد.. أحتضنها.. انتظرت أن
تبرح مكانها وتغيب بعيداً.. أدنو منها، وكانوا يحيطون بي.. أحيطها بذراعي وأقبلها وهي
واقفة قبالي بلا حراك.. تبسموا.. يسخرون مني.. كأنها ما جاءت إلا لنصب شراكها حولي،
ثم الإيقاع بي وتسليمي لهم معترفاً بأنني خائن..



اعتراني خوف شديد.. ثم أحسست بأنها تساعدني وتخفف عني شعور الخوف،
وتضغط على جسدي، فأضغط، ويتلاشون رويدًا، رويدًا، يصيرون خيالات.. المغفلون،
المنحطون، لم يكونوا يعلمون بأني أعشقها حتى النخاع.. مرة أخرى جاءوا.. كانت معي..
تكاد تحتويني، تنضو ثوبها.. قطعة بعد قطعة.. أمتلكها وهم وقوف.. أتداهم.. بهذا الجسد..
وكانوا يدخلون رأسي، بقوة رهيبة..

تساقط كوب الشاي مني، فصحوت من غفوة..

* * *

كنت كالجندي الأعزل، لا يملك سلاحًا، لمواجهة عدوه المتربص، الرابض، كانوا في
تجاويف رأسي قائمون، كالشعابين، في الزوايا والشقوق، لا أملك حيالهم دفعًا..
لكنني أنسل .. أقعد مع المعمرين، كاتمي الأسرار.. المتواجدين دومًا، في الربع الكائن
بين الكشك والنافذة، قاعدون وكأنهم محبوسون في هذا المربع المحدود، لا يستطيعون الفرار
منه.

كانوا يقولون لي هامسين بأن ما سوف يكشفون عنه، هو سرهم القابع في الذاكرة
المجهد، سر ناءت به أرواحهم والقلوب، وكان لا بد لي، والأمر على هذه الخطورة، أن أفرغ
لهم نفسي والذاكرة، أن أستعد لتلقي سرهم ذاك.. فأصغيت .. أصغيت..



(٣)

الحكايات

كان الفولي مرشدًا.. كان رفيقًا لسعد زغلول، وعلي شعراوي.. عبد العزيز فهمي.. صدق أو لا تصدق.. كان هو رابعهم، هل تصدق؟ رابع الثلاثة الذين خططوا لثورة ١٩ حين ذهبوا بمقابلة وينجيت ممثل الاحتلال البريطاني في مصر، ليطالبوا بالاستقلال، كان رابعهم، ويقول المخبرون السريون لقصر المعتمد.. إن الفولي انتظر على باب المعتمد، حين دخلوا، وقف حارسًا، أو قل كاتمًا لسرهم.. كان يتوقع أن يقبض عليهم ويودعهم السجن، حيث يتحتم عليه، حينئذ، أن يرمح إلى بقية الأصدقاء ناقلاً الخبر، ومن ثم يطلق لذويهم ويزف الخبر.. فهو - كما يعتقد في نفسه - أنه الرفيق الأمل لتغطية هذه المواقف التي تتطلب الكياسة والسرعة وصب كلمات الصبر المزوق بعبارات النزاهة والتأنق.. تصدق..؟

عبارات لم تكن تخلو من سمات الشماتة والبغض، وأن المقبوض عليهم - الأصدقاء الثلاثة - يلعبون في الوقت الضائع.. يصطادون في الماء العكر، ماء آسن لن يروق أبدًا.. فلم لا يعيشون مثلي، مثل كل الناس؟ من هم حتى يركبوا رءوسهم الريفية الواهنة، ويطالبوا بمقابلة المعتمد البريطاني بكل جبروته وسلطانه؟ أليسوا بأغبياء؟ إن الملك فؤاد "نفسه" يتخذ من المعتمد متكئًا يستند عليه، يتخذ جدارًا منيعًا لصد الغضب المنتفض أحيانًا من جانب الشعب، المجهد، لما يراه من فسق ومجون.

لكن الحظ لم يكن بجانب الفولي، لم يدعه يفرح بما يدور برأسه الماكر، فقد خرج الثلاثة من مكتب المعتمد بوجوه صارمة، متحدية.. أيقن الفولي بأن المعتمد قد سخر منهم وطردهم، لكنهم بدوا أكثر قوة مما كانوا عليه حين دخلوا.. كان رابعهم..

سار خلفهم منساقًا بخيبة الأمل.. لم يكونوا يدركون بذلك الشيطان الدائر برأسه المطاطي فوق ظلالهم الممتدة على الأرض، عجيبة تلك الحكايات.. تصدق..؟ كان منتهى أمله أن يشاهد المعتمد عن قرب، أن يلمس يده أهو إنسان مثله؟ إنسان له قلب يدق مثل كل الناس؟

مثله هو الفلاح القادم من أغوار قرية شربين يطلب العلم - رغماً عنه - بمدرسة الأزهر؟ ينشد العلم من الدين، يأمل في الرقي، ليصبح أفنديًا مثل شبان مدرسة الحقوق التي أخرجت لمصر سعدًا ليلقي الرعب بقلب المعتمد..؟ تصدق.. إن مطالب سعد خيالية ومدهشة..؟ أتصدق؟ أيمن للمعتمد المحسن قصره بالإنجليز والبنادق والعيون، أن يقابل فلاحًا، ضئيلاً



يلبس البنطلون والقميص والطربوش، واسمه الفولي، حتى اسمه مخجل.. لكن الفولي كان يفكر.

ألا يعلم المعتمد أن شكل الفولي مغايرًا تمامًا لمضمونه؟ ليس بالشكل يؤخذ الرجل، بل بالقلب والأفعال يؤخذ.. أعطني قلبًا محصنًا وارمني في النار، سأنجو وأعود.

ألم ير المعتمد المحصن بكل أنواع الخمر وألوان النساء القاديات من كل بلاد الدنيا، سواقط الملك ورجال قصره المتأنقين، وأعين بعض أبناء البلد الساقطين.. إن الفولي يرتدي، ما يزال - البنطلون من الصوف الإنجليزي، والقميص من القطن المصري لكن التفصيل إنجليزي، وأن رأسه مقصوص على الطريقة الإنجليزية، وأن بنايوتي حلاق العسكر الإنجليز بالجمرك هو حلاقه المفضل؟ وإن لم يكن يلبس من منتجات بلد المعتمد البعيدة، سيظل "لببوصًا" وإن لم يستعمل "لمبة الغاز" الإنجليزية سينام في عتمة البلد، ولن يراجع دروسه غير المجدية أمام رأسه المعاند لاستقبال ما هو أبعد من مرماه المنشود.. هذا هو الفولي.. تصدق؟

كان المعتمد يبيت رجاله المتأنقين في أركان البلاد.. يلتقطون الأخبار، وراء كل رجل متأنق رجل يراقبه.. والمعتمد يمنح أولئك وهؤلاء الهدايا، الهدايا أنواع، يمنح الأرض لمن يأتي بالخبر اليقين عن فدائي مخبوء أو محرض لعين أو متحدث سليط اللسان، ويمنح لمن يأتيه بأخبار المدارس، فيما يتحدث الطلبة.. هل يجتمعون في المساء، في النهار، وأين أمكنة اجتماعاتهم.. أما المقربون جدًا، أصحاب الخطوة، فهم الذين يأخذون أراض زراعية، يزرعونها ويأتون بالقطن، الجواميس، القمح، ليصدره المعتمد إلى بلاده.. هؤلاء ممثلون جدًا بقوى المعتمد وسلطانه، تراههم زبانية النهارات والليالي، يقتحمون، أحيانًا، أسواق الجمعة، والأحد، والثلاثاء.. فلاحون آتون، ساعون للرزق من بلادهم، يحملون كد السنين والانتظار، بائعو العرق والصبر.. كانوا يقولون، لا بيع بالأسواق إلا بموافقة محمد سعيد بك، الأفاق الذي وقع معاهدة الاحتلال.. لقد منع البيع والشراء لكي يشعر الفلاح بالجوع وليعد بما جاء به من قطن أو خيل أو خضر وطيور، ثم يعود الفلاح مرة أخرى لبيع بضاعته بالثمن الذي يحدده رجال محمد سعيد، وعيون المعتمد، وليسوا بطونهم والعيال، والله أمر الممتنع، الله أمر الرافض، فيلقى بأرضه نارًا، أو بيته حطامًا، أو مطلوبًا ولده للجندية، أو مفعولًا بأمراته الفحشاء، أو مسلوبة ابنته البكر، أو مأخوذًا هو ليشنق بتهمة مواجهة السلطات..

آه .. أتصدق ؟.. هذا هو الفولي..

لكن كيف يتسنى الوقت ويخضع المعتمد لفكر الفولي وسعد وصديقه لم ينجحوا في

المقابلة؟



كان عليّ أن أصدق أو لا أصدق، بل أصدق، فكل شيء قابل للتصديق ما دامت الدهشة،، قالوا،،

لقد شد المعتمد على الناس أوتاره، وأصبح من الخيال مقابلته، لكن اليأس لم يصب الفولي.. ظل مصاحباً للثلاثة.. مع أنهم كانوا ثلاثة، لا رابع لهم، سوى رجال حزب الوفد الجديد، رجال أنذرهم المدعو واطسون يوماً، وألقى عليهم تهديد المعتمد، العقاب الشديد لكل من يفكر أو تسول له نفسه ويتحدث في مسألة الاستقلال، ونمت أحلام الفولي. مع ذلك.. تصدق؟ حتى كان يوم الطامة.. يوم فوجئ الفولي بخبر نفي سعد إلى مالطة.

لم يدهش، أو يشعر بما كان يشعر به يوم كانوا ثلاثة.. لم يذهب مسرعاً ليكون أول الذين يزفون الخبر، فالبلد كلها كانت تعلم بأن سعداً ألقى في الجمعية التشريعية خطبته المعارضة للاحتلال والملك.. ذهب سعد، وثار الشعب، وخمد وميض الأمل لدى الفولي.. تكاثر الفدائيون.. اعتلى الرجال مواقع العدو.. تكاثفت النساء.. خرجت المدارس وحطمت شوارع ومنازل وسدود، وأضرمت النار في حوانيت الإنجليز، وأطلق الرصاص، ليخترق أبدان الناس.. تصدق..؟

انبثت عيون المعتمد في كل مكان.. تبحث.. تغوص.. في البلاد البعيدة.. وكان المعتمد يرحب بكل بصاص جديد يأتيه بخبر مفيد.. الشعب يطالب بسقوط الملك، والمعتمد يحمي مصالح أوروباء، والملك يعطي للشعب ظهره، ظهره كان المعتمد.. أقوى، الفولي القادم من شربين وحيد وشاذ، لا شيء هناك يفعله.. أمله المنكوب، ما زال منكوباً.. عيون المعتمد تبحث عن عيون "مرشدون". أهله المعدمون بقرية شربين يسلبهم أذنان المعتمد - المصريون - أقواتهم، الأذنان يثرون، يمتلكون الأرض، الهوجة تتكاثر.. الفولي مصري، المعتمد بريطاني.. التمرد يزيد، الموت يحصد، المعتمد غريب، الغاضبون في الشوارع، الغاضبون والغاضبات في الأزقة.. فورة الشعب الناهض من غفوته يجب أن تخمد، القلاقل تتكاثر.. لا ثورة هناك، لا ثورة...

كانت الكلمات تتدفق من الصدور بشكل غاضب ومنفعل، وكنت أتلقي بأذنين متوقدتين، قالوا:

في الليل المعلن يحظر التجول، تسلل الفولي، من مدرسته المحاصرة، طعن إنجليزياً بسكين واستولى على سلاحه وخبأه..

حين أحس المعتمد بعملية الاغتيالات الجديدة، بحث بدأب وذعر عن ذلك الفدائي الجديد، كل فدائي جديد،.. شعر الفولي بالزهو.. أخذته العزة.. لكن ذلك لن يمنحه مالاً، أو أرضاً.. لزم الصمت.. كل شيء كان يموت بموت الأيام.. أيام حملت في لياليها والنهار



أعدادًا أخرى من قتلى الأجانب، فأعلن المعتمد لعيونه بأن كل من يجيء بفدائي له جائزة،
تصدق؟ .. آه.. تصدق.. ؟

بدأت أذنان الشعب - العيون - ينقبون، في المقاهي، الملاهي، الخمارات،
والبيوت...

كانوا يتنهدون، يهزون رؤوس التعب أسفاً، يتحللون من وطأة الأسر، الحكايات
المخبوءة.

وأول الذين أُرشدوا عن مخابئ الفدائيين كان الفولي، تصدق؟.. أخفى البندقية التي قتل
صاحبها بسطح بيته الذي كان يقطن منه حجرة ضمن حجرات أخرى متجاورة لطلاب
آخرين.. أفادت تقاريره العشوائية بأن الفاعل هو أحد سكان السطح، تصدق. له الله.

وحين طلبوا منه أن يرشدهم عنه، قال، إنه لو فعل ذلك، سيعرف أهل الشارع بأنه
عين للمعتمد، وحين سأله عن شكله، قال، إنه شاب، نحيل الجسم، طويل القامة، له شارب
مشذب، له شعر مجعد، يلبس الطربوش، ويلبس قفطاناً أبيض وفوقه جاكيت رمادي، كنتم يسر
بأسرار المعتمد..

وعندما ذهبوا، تناولوا كل قاطني السطح، والسطوح المجاورة، وكل من تنطبق عليه
المواصفات سالفة الذكر،.. ولم يخطر ببال الأغبياء بأن تلك الأوصاف تنطبق عليه هو
أيضاً.. ولكنهم أعجبوا بشجاعته وانتمائه. وتفانيه في خدمة المعتمد، فأصبح عيناً، ثم منحوه
الجائزة، أرض بلا زرع، بها، فقط، بعض النخيل، تلك الأرض الشاسعة الخاوية المهملة
بطرف المدينة.. هذه الأرض التي نعيش عليها الآن..

ومضى بذهني اسم علي الإنجليزي، قلت:

- إذن، علي هو ..؟

قاطعني عم منع:

- هذا اسمه علي الفولي الإنجليزي.

قال الحاج السباعي:

- هو ابن الفولي ويطلقون عليه - الإنجليزي - الفول الإنجليزي، كما أطلقوا على

أخيه الهلباوي، الهلب الإنجليزي،.. أخذت بالك..؟

قالوا للفولي الأرض لك، وعليك أن تحرس نخلاتها، ففي النخيل يختبئ الفدائي والقاتل
والمخرب، وإن وجد بها أحدهم، ستكون أنت المسئول، فليس بالأرض سواك. وسواك لن
يحرسها أحد.. تصدق؟.. لذلك تدرب الفولي على صعود النخل، قصف سعفها لتبدو عارية،



ثم ابتنى لنفسه كوخاً بالسعف.. تربع في كوخه المتوحد، متطرفاً بحافة الأرض، وعند سكة الإسفلت.. يأكل مما يسقط النخيل من بلح، أو يعترض المارين على الطريق، يسطو على العربات المارة، إنجليز كانوا أو مصريين.. كان ذلك يحدث بالليل، بعد أن يخفي وجهه بالكوفية، شاهراً في الوجوه سكينه، يأخذ نقودهم والطعام وجراكين الوقود ليفرغها على الأرض، ثم يعبئها - بينه وبين نفسه - بعصير البلح المزود بالسبرتو، كان يفعل ذلك شتاءً، يخزنه ليخرجه في الصيف، ثم يبيعه في كشكه المقام حديثاً على الطريق والملحق بكوخ نومه، ليأوي إليه طلاب الراحة والدوخة والدفء في مقابل بعض القروش.

ظل الفولي وحيداً بهذه المنطقة.. صارت موطنه، يأتي رواده ويذهبون، يؤنسون أزمنة الفراغ لديه، ذلك الفراغ المستبد، الموحش، الذي يلهو بمشاعر الجسد حين يذهبون.. أتصدق؟ ولقد علم من أحد الوافدين بأن سعداً قد عاد من منفاه.

لكنه لم يظل طويلاً هكذا، وحيداً.. فذات ليلة باردة.. دقت باب كوخه امرأة، ريفية.. يقول بعض السائقين القدامى، إنها جاءت هاربة من الصعيد، مطاردة من قبل أهلها على إثر حب آثم، ارتكاب الفاحشة مع أحد الشبان ببلدها أسويط، وأنها قتلت ذلك الشاب بعد تخليه عنها.. في تلك الليلة البعيدة، أصابت الفولي فرحة عرقلت لسانه المندهش، فتح لها الباب وأدخلها.. أعد لها طعاماً، ولم يسألها عن شيء.. أنامها، ولم ينم هو، تصدق؟.. تخيل جسد امرأة يأتيك لوحده في الليل والوحدة الموحشة.. امرأة، صدر، رأس لحم نحاسي اللون.. ليل بارد، فراغ، ارتقاها.. أفرغ في بدننا كل متاعب السنين والأشواق والشبق المحبوس، امتلكت منه القلب، الوجدان، النفس، واعتلت كتفيه - لم تفارقه ليله أو نهاره، فاتخذها زوجة..

وتذهب الشمس وتعود.. والوافدون على الكشك يتكاثرون.. تنتشر الأقوال بانتقال الرجال.. سائقي اللوريات وعربات الجيب.. على الطريق ملاذ جميل، هادئ ملاذ للمتعبين.. بناه رجل اسمه الفولي.. يتحدث السائحون أولاد الزبانية القائمون أبداً بالبلد، عن مكان جديد، به من الطعام البسيط والمشروب الروحي ما هو أفضل وأرخص..

والرجال المتخمون، المتوارون وراء الصمت والحركات المريبة، الذين يأتون بالمخدرات من واحات البدو، يقولون.. بأن على الطريق مكاناً جيداً.. "محدوفاً" يصلح للتلاقي.. يتحدثون في أمور تصريف البضاعة.. ويمكن استخدامه في التورية والتمويه، وإخفاء الحشيش بمعرفة الفولي.

.. هيا يا رجال ..

تفرقت صيحات عبر الليل المغتال.. تتناقل رعوس المعمرين كلما أوغل الليل والأصوات المتقاربة في الأعماق، أعماق ليلهم العجوز، العاشرة صيفاً.. الثامنة شتاءً،



كانت عيونهم الكابية تخبو فيها رغبة المواصله،

في تعب ينهضون،

هيا يا رجال.. يمضون.. يخلون الأرض. الشوارع، فالليل يملكه الأقطاب..

الصبيان.. أتوارى.. تدنو الأصوات..

الليل غاب..

الليل غاب، يسكنه الصمت والدخان.. الليل خاو.. يتوق لحشجة الأنفاس، لصوت القرقرة في القوارير، لارتعاشات الماء في القيعان، لضحكات الرؤوس المنتشية لشبان انتهكوا الصمت الناعس بأرض الحقل، بأمر أحد الأقطاب، تناوبوا، تحت جذوع النخل، حقن مواد الماكس في الأوردة، وجاءوا..

هيا يا رجال، نوقظ موات الأرض في ليلنا، نبعث فيه الدفء بإشعال المواعد، نؤنس العتمة الغاشمة بانفجارات الصدور المعبأة بعيون النهار، هيا نعد لليل المعسل، كيزان الحجارة، نكرس الحشيش، كالرغيف سارق الرءوس. ندافع عن وجودنا من ضابط القسم الأحمق.. هيا فليس على الأحمق حرج لا على الحكومة حرج، فهو مستجد على هذه الأرض لم يأخذ عبرة من الذي قبله، لقد مضى، وبوجهه الجميل ندبة مطواة.. ونحن على الأرض نقيم.

هذا الأحمق يود الارتقاء، الترقية، لا يود الارتقاء المالي، العربة والعمارة، يود الترقية على أقيمتنا المغطاة بأعين نساءنا الواقفات بدهاليز البيوت والشرفات، ورءوس الحارات، يراقبن كل الداخلين بعد انسحاب النهار، يضحكن بأصواتهن الطموحة كإشارات لنا، لنعتدل ونكتم الأنفاس في البطون، وخلف الجماجم.. أحمق هو.. لماذا نبني الأبدان ونزود الأعصاب بالقوى؟ لمنح النساء الرعاية على الأسرة.. هيا..

تعمدت الوقوف بمدخل بيت قديم.. ودخانهم المتعالي يذوب في ظلمات الليل الموشك على الرحيل..

حين انتهوا، بدءوا يتمايلون، يللمون المواعد والجوزات.. يتفرق البعض بعيداً.. واعتقدت أن ليلهم المملوك، قد انتهى، فتحركت تاركاً المدخل، إلا أنني وجدت علي الإنجليزي. وآخر ضخم الجثة، يتسلان نحو بيت "دودي" المقفل، يفتحان بابه ويدخلان..

توجست.. انتابني قلق شديد.. إن الحاج السباعي يقطن الدور الأول، توقعت صعودهما إليه.. سوف يقتلانه أولاً.. نعم.. ثم يقتلان عم منع، هذا أكيد.. فارتعشت خوفاً وتوجهت - بأعضاء مرهوبة - نحو بيتي، كان شيء بداخلي ينبض، كأن أحداً يضغط على



مصاريني.. توقعتهم قادمون إلي، .. يلوي مشاعر رغبة السماع الملحة لدي على التوقف، كانت كلمات المعمرين، الآن، تطن في رأسي كأنهم يشحنون دماغي بمزيد من المعلومات الخطرة التي لا يعرفها أحد سواهم.

كانوا يسكبون الكلام مقربين أفواههم الوعائية من أذني رأسي الثابت، المندesh، كمن يخاف بعثرة الكلام، الحكايات حول نطاق رأسي، يتحدثون وكأنهم يتخلصون من عبء أثقل منهم الكواهل والقلوب الغائر بها الزمن المجهد، الأمانة يحملها الشباب، أبت الجبال والأنهار والكهولة، لم أهتم حينئذ بخطورة التفاصيل ولم أكن أتوقع معرفة الكثير عن تاريخ المنطقة، فقط.. صدقوني.. تقت إلى الإمام الاستطلاعي عن كيفية استبقائهم كل تلك السنين على هذه الأرض..

تتبدل الحكومات، الثورات، وهم كما هم، قائمون، فقط أردت العلم لأكون لنفسي - سرًا - فكرة أستطيع بها أن أقيم موازنة بين ارتقائهم الذي لا يحده حد، فهم يملكون من الأموال، والقوى ما يجعلني أشعر بتفاهة من هم دونهم، فضلاً عن أبدانهم الضخمة كالحلة اللون، كأنهم جذوع النخل بحق، وبين نفسي، موضعي البسيط بساطة الورقة التي أكتب عليها، بإمكان الريح أن تلهو بها، والجو أن يبيلها، نقطة ماء تمزقها، أنا البسيط تحت زمني المقهور. يجب أن أكف.. أتوقف.. أرحم نفسي مما تعانيه، ومما يمكن أن تلاقيه، تماماً مثلما يحدث للحاج السباعي وعم منعم، وعم مرعي، هل لقوا حتفهم الآن . ؟

* * *

في الصباح انتظرت موت المعمرين.. سماع خبر عنهم.. لكن الحي كعادته المألوفة.. قصار البيوت تلفظ أطفالها الحفاة. باعة الخضر يتجولون، ينادون بأصوات مخنوقة.. كنت أدنو على - حذر - من بيت دودي علني أسمع شيئاً يحقق توقعاتي.. شباكها لا يزال موصداً. كشك عم مرعي مقفل وساكن.. السراق لا يزال منصوباً.. خمنت بأنهم تركوه هكذا ليشيعوا منه جثمان المقول.. لكن خابت توقعاتي حين وجدت عم مرعي يغادر باب بيته، وهو يتمتم ويساقط حبات مسبحته. قلت في بالي، ربما قتلوا الحاج السباعي ولم يكشفوا عن جثته بعد.. توجست وانتظرت .. الوقت ثقيل ذلك الذي سوف يكشف عن المخبوء.

كان الشباك يدفع من الداخل ليظهر وجه دودي مشعث الشعر، انتزعت سؤال متخوفاً..

- كيف حال الحاج؟

قالت بصوت ناعس:



- صلى الفجر.. ونام.

ابتلعت ريقى والصوت.. استدرت لأعود.. اصطدمت بوجه "باط" وقف أمامي وكأنه
كان يراقبني متعمداً.. مضيت في صمت، وقد تملكني تساؤل غريب، لماذا إذن صعد علي
الإنجليزي والآخر إلى بيت الحاج السباعي ليلة أمس؟
داهمني شعور الخطر.. عدت مسرعاً وصعدت إلى شقة الحاج السباعي.. كان نائماً.
أيقظته امرأته العجوز..

- سباعي.. يا سباعي..

اندهش لرؤيتي صباحاً.. قال.. وقد جلس..

- عندك أجازة ؟

- تعبان قليلاً..

- اشرب معي الشاي..

ثم جاء عم منعم مهرولاً، احتضن الحاج وجلس في قلق..

* * *

حين هاجم الألمان الإنجليز في مصر، ضحك الناس في الشوارع وقالوا متهمكين..
الألمان الشجعان يحاربون من أجل بقائنا تحت التراب، هتلر يحارب المعتمد البريطاني في
سيل عيوننا السوداء، وأرضنا الخضراء ونيلنا اللذيذ، من أجل عيون الملك.. يحارب.. حينئذ
تهدمت شوارع، وبيوت ودكاكين، كل ما هو ناءٍ على أرض مصر تهدم.. ضربوا يومها
الشمس وحجبوها، أرسلوا الطوربيدات لضرب المصريين الذين استفادوا من وجود الإنجليز،
كانهم يلقنونهم درساً في الأخلاق والفضيلة، ألا يفعلوا مع الألمان - مع الأسف - ما فعلوه مع
الإنجليز - بعد أن يهزم الإنجليز - ويجيئون لأخذ مكانهم من احتلال مصر، وليعلنوا أن
الإنجليز ضحكوا عليهم ومنحوا اليهود أرضاً لم تكن لهم، ونحن أحرقناهم لأجلكم.. وسوف
نطردكم لكم من فوق الأرض..

يومها اختبأت "زمردة" امرأة الفولي، في البوص المزروع بأرضها. وصعد الفولي
فوق النخلة، بعد أن دفع بكل ولد من عياله، أن يصعد نخلة، لكن العيال أبوا الصعود، وطلبوا
أن يظلوا تحت النخيل ليرى أباهم وهو يقذف لهم بالبلح الأخضر، وليشهدوا القصف والدخان
المتصاعد من ناحية عامود السواري وباب سدره".



وحين توقف الضرب قليلاً.. لم يفكر الفولي أو زمردة في الهجرة مثل كل الناس. بل هبط الفولي من فوق النخلة، وبدأ ينقش بقطعة شظية، على كل نخلة اسماً من أسماء عياله.. على النخلة الأولى والتي تلاصق الكوخ المتجدد. كتب اسمه ابنه الأول:

(الهلباوي سيد الفولي)

وعلى النخلة الثانية والتي بوسط الأرض، كتب ابنه الثاني:

(علي سيد الفولي)

أما النخلة التي بطرف الأرض فقد كتب عليها اسم ابنه الثالث:

(غباشي سيد الفولي)

وزيل كل اسم باسم الشهرة.

الهلباوي كليبر.. علي الإنجليزي.. غباشي ليني.

وعندما سأله العيال عن المعاني المقصودة من هذه الأسماء تبسم وهز رأسه الكبير المخلوط بالشعر الأبيض والأسود، قال:

- عندما تكبرون، سوف تعرفون كم كان يتمتع هؤلاء، الرجال بالشجاعة والإقدام.

رشف الحاج السباعي من كوب الشاي رشقات بطيئة، وداخلني شعور بأنني أغوص فيما لا يعني.. مالي ومال هؤلاء القوم الجبارين؟

فلأعد لغرفتي، وأغلق عليّ بابي، وأكي على الخبر المفصل والتاريخ المتأصل في الوحل غطاء رأسي المنصهر بالدهشة..

لكن شيئاً قوياً، خفياً، كان يشدني لمواصلة السماع، فقد أصروا على تفرغ ما بدعوه حتى النهاية، حتى لا يكون بالصدور ما يدعو للقص مرة أخرى، فربما يهربون.. أو ينفون أنهم قصوا على إحدى الحكايات..

قصفت مخازن كوبري الناموس، أشعلت النار في الأطعمة والمهمات، اعتقد الناس بأن الألمان يقصدون بذلك تجويع.. .. تنهد الحاج السباعي، وتابع قوله.. الإنجليزي بتلك المنطقة، لكن المقصود كان تجويع المصريين، فالألمان يعلمون جيداً أن الإنجليزي ينهلون من خيرات مصر، حتماً سوف يرسلون أذنانهم إلى القرى والنجوع والكفور، تصدق..؟

هذا هو ما حدث، فأول الذين جاعوا كان الفولي، فكرت زمردة في بيع ما تملك من ذهب.. لكن الذهب انهار سعره، امتنع الصاغة عن الشراء.. لم يكن الفولي ضمن الحالمين بأيام الفرج، ترك امرأته ونزح مع الراحلين إلى مناطق العامرية والحمام، وبرج العرب، يقولون إن بعض المصريين يتحايلون على المعيشة بطرق جهنمية.. كان بعضهم يسطو على



قطار الجرحى العائد من مرسى مطروح إلى الإسكندرية، بالاتفاق مع "المحولي" بكشك التحويلة الرابض بسكة العامرية، ليبطئ من تقدم القطار، ليصعد الرجال، ينهبون ما تصل إليه أيديهم من طعام، ساعات، خواتم، نقود أدوية، .. ويهبطون..

كانت حملاتهم تزداد يوماً بعد يوم.. ولم يتوقف عملهم على هذا، بل تحول نشاطهم - بفكرة الفولي - إلى ضرورة البقاء في القطار الذي يتابع سيره عن طريق محرم بك، أبى قير، فكتوريا، مروراً بباكوس.. كانت زمردة قد بدأت في مزاوله عملها الجديد.

حملت القفة، وبعض القواقع.. نزلت المدينة بأمل بعيد في جمع بعض النقود.. دار بدننها الطويل، تضرب الودع، تقرأ الكف، تقول كلاماً غريباً، لم تكن تفهمه، لكن المتلقين الكلام يدركون بأنها تعرف الغريب والمخبوء، والمكتوب فيه..

أما صغارهما، فقد شقوا طريقهم المبكر، بدعوا في جمع أعقاب السجائر.. ذات يوم.. انكشف أمر الفولي، بباب سدره.. هوجم وهو يبيع ملابس الجنود الجرحى والموتى لأحد الإنجليز،.. وعندما سأله قال، إنه يعيد مال الإنجليز للإنجليز.. تصدق..؟ وأنه كان يراقب مصرياً حاول سرقة جثة أحد الجنود الموتى لبيعها لأحد طلبة الطب الذين كانوا يتوقون بشكل جنوني لتشريح رأس إنجليزي ليعرفوا ويطلعوا على السر المروع والرائع والذكي، الموجود في دماغ الجندي الإنجليزي..! تصدق..؟

يومها، منحوه النقود، والتشجيع والأمان، ذاكرًا للبوليس، أنه تحت رعاية المعتمد وأنه دام مخلص للسادة الإنجليز الذين يحمون البلد من الألمان، وأن السارق، تصدق! هو المصري الخسيس العدمان، التعبان، العريان.

وحين انتهت الحرب.. عاد الفولي ليسكن الأرض مع امرأته التي تأتي ببعض النقود، وصغارها الذين يأتون ليلاً، وقد باعوا أعقابهم.. واصلت زمردة عملها في ضرب الودع، الضحك على الحمقى والتافهين، لم يمانع هو ما دامت تأتي له بالنقود..

بعد الحرب، نزع بعض الريفيين إلى الأرض هرباً من قهر الإنجليز في القرى والنجوع.. توافدوا من البحيرة والصعيد..

أحس الفولي بأن هؤلاء ساقطون - برغبتهم - تحت سلطته الكاملة، أبقاهم بالأرض حول كوخه على أن يبتعدوا عن منطقة النخيل، فتناثروا حولها، .. بنوا على الأرض أكواخاً.. بنوها من مخلفات معسكرات الإنجليز المحترقة بناحية كوبري الناموس، أرض سيوف شماعة، الرأس السوداء..



وكان لا بد لهم من عمل يأكلون منه، فالفولي ليس معتمدًا وليس وزيرًا.. فالعهد قد تغير، وسعد قد مات، ونحن في الأربعينات من الزمن الأسود، والعيال يكبرون، وينبغي أن يترك لهم شيئًا.. فلتعملوا.. العمل شرف..

تدربت النسوة على يد زمردة.. كيف يحملن القفف.. استعمال السر في القواقع، الحديث مع الزبائن عن الغيب والمكتوب، وسائل نشل الرجال في المواصلات العامة، استعمال أجسادهن واحتكاك مؤخراتهن بأبدان الرجال أثناء الزحام.. وتهيج مشاعرهم، دون المساس - بالطبع - بالشرف النسائي.

وانطلقت في المدينة..

أما الرجال، فقد تدربوا على شتى الوسائل لتحصيل النقود، بدءوا يتعلمون ركوب المواصلات والنشل وتصليح المفاتيح، حاملين صناديق صغيرة.. يلفون الشوارع، ينادون.. (نصلح مفاتيح.. نعمر..) وبدأت أرض الفولي تنبت بالزرع.. كان منهم - العجائز - يعملون في الحرث.. حتى عادت على الفولي ببعض النقود..

وبدأت عملية التآلف والتآخي والونس تسود..

ومضى بذهني سؤال.. قلت مقاطعًا:

- أكيد أنتما كنتما ضمن هؤلاء العجائز؟

قال عم منعم:

- بل كنا شبانًا، ولم نكن نحب السرقة، فعملنا في عزق الأرض..

قال الحاج السباعي..

- كان الفولي إنجليزيًا، مصريًا، سيئًا.. المهم.. تصدق..؟ أسرة الفولي، والكشك،

أصبح مقهى يرتاده كل العابرين من الإنجليز والأفارقة، واليهود، تصور؟ اليهود

أيضًا يدخلون مصر؟ كان المصريون يأتون إلى المقهى لسرقة هؤلاء الرواد..

أنتج رجال المفاتيح أطفالًا.. أطفال ليالي البرد، والقسوة.. أطلقوا في الشوارع، الولد

سيف مفتاح، الولد السوري أبو حديدة، رامبو، الولد فتحي العاقل، عيال كثيرون ملئوا الحي

بالخوف.. كانوا صبيانًا تحت يد علي والهلباوي وغباشي، الذين صاروا شبانًا يشار إليهم

بالحذر والخوف.

سألت عن غباشي ذلك الذي لم أره.. قالوا.. لقد اختفى ذات يوم، وعمل الفولي

بالمقهى لم يدر عليه بالمكسب المنشود.. الأجانب لم يعودوا يأتون بكثرة.. يبدو، والله أعلم،

أنهم خافوا وأصبحوا يدركون تلاعب المصريين بهم.



فكر الفولي في الرحيل إلى برج العرب، وديان البدو، هناك رجال أقوياء، أعراب، يتاجرون في "الكوكابين" ويجلبون الحشيش.

في البداية عمل الفولي حمالاً، ثم موزعاً - وكان يفكر - في استعمال مقهاه، كمخبأ، ثم ضرب البوليس حول البدو كميناً، فضبطوا متلبسين ببعض البودرة،، والحشيش.. الأعرابيون يبيعون مخدرات خيول الإنجليز للجند الإنجليز،.. ليسوا العسكر البيض بأحصنة، أو بهائم كي يتعاطوا هذه "البودرة" إنهم يسرقونها من نوادي السباق، المصريين فقط الذين يتاجرون في أخلاق الإنجليز، ونحن نخدم العسكر..

تصدق ..؟

يقول البعض، إن الفولي كان وراء عملية حصار البوليس، مما أكبره في عيون المعتمد.. وقام الفولي - سرّاً - بتجارة المخزون في مقهاه، ولكي لا يخرج الموضوع عن رأسه، جند زمردة لتقوم بتوزيع المخدرات في قفة ضرب الودع..

وضعت كوبي.. بدا عم منعم متعباً.. اضطجع الحاج السباعي إلى مسند السرير.. تنصلي من هذه الحكايات ضرب من العبث، اللهو بالنار، فقد شحنت بما يكفي أن يفجر طاقة الصبر عندي.. لو لامسوا بدني سوف أتحدث، أسكب ما بوعائي، لو شكوا عظام دماغي بدبوس سافرغ كل ما في جعبتي، أنشر على الملاء الحكايات المدهشة، أروي على الذين لا يعلمون حوادث الزمن البائد.. أشعر بأنني فاعل ذلك لو اشتد حولي الحصار،.. لكنني تخوفت، فلن يتركوني لأفكر لحظة في عملية بداية ارتباط لساني بما يود أن ينطق به.. تضاءلت ملامح الحاج السباعي، كأنه ينزف مع الحكايات بعضاً من دمه وأعصابه، وتصورت أنه لن يعتدل من ركنته، أو ينهض من مكانه أبداً..



(٤)

سد خانة

في المساء، تحول السرايق إلى حفل كبير.. ازدانت الشوارع بالبيارق والنجف، تراصت المقاعد والفرق الموسيقية.. تراقصت أبدان العيال، وضعت سماعات ضخمة على النواصي، وجهر صوت رج أركان المكان.. حي الفولي كله يرحب بعودة البحر، تعالت الأصوات، تعلن تقدم الزفة من أول شارع السلام، تجمعوا حول عربة حنطور كانت تحمل سد خانة، بين صفيين من دراجات بخارية صخبت أصواتها..

كانوا يصرخون إعجابًا..

(عاد البحر .. جاء البحر)

وحاملو الطبل يشاركون بإيقاع رتيب،

(عاد البحر..)

كانوا يتقدمون والصوت الجهوري يصيح..

أهلاً بأشجع الرجال..

البحر، الظل المتباعد أبدأ لحياة "دلال" الحائط المائل، البديل الدائم لمشاكل الهلباوي، الصدر الذي يتلقى كل الضربات التي يمكن أن توجه للهلباوي من قبل الحكومة .. النائب الأوحد، حامل الإدانة، يعترف بأنه فاعل الأفاعيل، يحكم عليه، يدخل السجن، يقضي مدة العقوبة نظير مبلغ من المال يصرف عليه وعلى أهل بيته.. الآن وقد لفظه السجن، فعلى الرجال المختصون بمراسم الاستقبال أن يستقبلوه.. يحملوه من العربة ذات الأحصنة ويتقدمون به.. هذا هو البحر، الواقف دائماً، متأهباً، بفوهة المدفع، البحر، الوجه المألوف لدى السجناء والحراس، النسخة المكررة - كما يجب أن يقول بافتخار - البك الهلباوي، بكل صولجانه.. البحر، الذي أमत قلبه على قضبان السكة الحديد، وارتضى أن يكون سفيراً نظير النقود، يمنحه الهلباوي شرف الاسم الذي يتعالى به على بقية أقرانه من الرجال.. الرجال هنا، والرجال في السجن، أولئك الذين ينتظرون قدومه لينالوا منه الأطعمة المتسربة إليه و "الدخان" - سجائر ومخدرات - والحراس يرفعونه فوق مستوى السجين العادي..

تعمدت أن أبدو لهم، على الرغم مما يعتريني من هواجس تضاربت، توقعت أن يطردوني.. وتوقعت أن يسلطوا عليّ أحدهم.. كانوا يرونني.. ويبدو أن مظاهر الفرح جعلتهم يحجمون عن إيذائي، يتطلعون إلي في صمت.. أبدو لهم ، خاصة علي الإنجليزي، وجليسه



الملتحي الضخم، الساكت سكوت الواثق، وكأنه ينظم - برأسه الكبير - لتدمير العالم، يدمره بعينين خاويتين، قابعتين وراء أجفان منبعجة، ها هو أنا.. جئت إليكم، أعرض عليكم نفسي، مسلماً لكم رقبتني برضاي ورغبتني.. وكانوا ينهضون لاستقبال البحر من فوق أعناق الرجال، أتجه إليه علي الإنجليزي، وكان جلسه لا يزال قاعداً، قال علي:

- أخي الهلباوي ، يشكرك.

قال البحر.. سد خانة، وسط الجميع:

- أنا فداء للبك الهلباوي، رقبتني سداً.

تعرفت يومها على الهلباوي، الجليس الساكت، وعلى البحر، وتساءلت في استغراب.. لم لا يذهب البحر إلى بيته أولاً؟ لقد توقعت أن ينطلق إليهم بكل شوق الغائب.. كانت هي هناك، بالنافذة تشاهد الاحتفال بوجه لا مبالي، كأنه غريب.

جالساً كان بوجهه المسود وسوالفه الطويلة دليل التدلل وراء القضبان، كنت أتطلع إلى وجه الهلباوي، بينما المحنفون يولونني ظهور البغض، وقفت وحيداً استشعر الخوف.. أكيد هم يحيكون لي المكائد.. يتركونني إلى وقت آخر.. كانت هناك .. تمضغ لبانها..

وضع أحدهم كفه فوق كتفي .. التفت .. قال لي حسن رامبو:

- أنظّل هكذا طويلاً؟

لم أرد .. فقال:

- تتفرج دائماً من بعيد..

لم أجب.. لم يكن بي سوى فكرة عرض نفسي، قلت وكنت أنظر إلى سد خانة المنتفش كالديك..

- أنفرج على الهلباوي ..

وخبط صدره بكف يده مندهشاً. قال:

- أهو فرجه؟

انقبضت، ولم أرد.. ثم اقترب فتحي ونظر إلى وجهي بتحدي الواثق من احتدام التوجس بداخلي.. أشار بعينه أن أدخل السرادق، ثم تطرفت حدقتاه نحو نافذة دلال التي امتعض وجهها، فاحترقت الحديقة، دفعني إلى الداخل.. تقدمت، وذلك الإحساس بالخطر يلزمني.. تقدمت على صمتي.. وفكرت بأن وراء دعوتها لي أمراً آخر أكبر منهما، فهما ليسا إلا تابعان للأقطاب.. ربت رامبو على كتفي وقال:

- لماذا أنت خائف؟.. لن نفعل معك شيئاً الآن.



أيقنت أنهم بدعوا يظنون بي خفية.. طالعني وجه الهلباوي المتحجر متجههم. محفور به التجاعيد كقنوات خرسانية مكسوة بالشعر السلبي المتلبد. رمقني بجانب عينه.. وكنت أتجاوز مكانه مقبلاً.. تهاشم مع أخيه علي.. حين جلست، فكرت في النهوض والقول بأنني لم أبلغ عنهم ولن أفعل.. وأنني لست تافهاً.. لكن عيني الهلباوي أقعدتني، ورغبة القول.. رمقني.. فتشاغلت بالتفكير في أصدقائي كبار السن، المتوارين الآن، فأنا حتى الآن لم أتبين النية والمكيدة التي تحاك لي.. لم أفعل ما يغضبهم أو يجعلهم يوجهون إلي هذا البغض الواضح، فقط، أراد المعمرون سكب الحكايات بوعائي المستوعب.. كانوا يقولون: أصبح للفولي اسماً مقترناً برعوس الناس، يبعث على التوهج والسعادة..

قالت لي زمردة ذات يوم:

- مخزون الصنف بدأ يقل..

قال لها بصوت الواصل القوي:

- لا تخافي.. سوف نأتي بغيره.

امتدت أمام وجهي بوصة الجوزة، فانفض وجهي، رأسي، وكان الهلباوي يحدق فيّ بجانب عينيه.. إنني لست تافهاً حتى أبلغ عنهم، أكيد هم يفكرون في ذلك، فليفعلوا بي ما يرونه نافعا لهم.. إنني متأهب الآن لمغادرة الحي، فلست مستعداً لمزيد من الإشكالات، يكفي أربعة أعوام بعيداً عن أطفالتي.

علي أن أتعهد لهم بأن ألزم الصمت.. فإنني مجرد بعوضة، ذبابة.. إن لم أكن إنساناً بسيطاً جداً ومطحوناً. لن ينفعهم قتلي.. لكنهم لن يصدقوا، فعيونهم الملونة بدأت تجوب مكاني، بالتحدي، والوعيد، والسخرية، والدهشة.

وقلت في نفسي فلنر - والحيرة، والتساؤل، وشعور الخوف، فانكشيت، ثم ابتسمت غصباً. وقلت - أيضاً - في نفسي. حتماً هم - ربما - خائفون مني..

لامسوا طرف البوصة بجلد خدي.. قال رامبو:

- شد.. شد..

اعتذرت ولم أشد، فقال السوري:

- شد..

فاعتذرت أخرى على تخوف، فقال فتحي بنظرة المغناط:

- لا بد وأن تشد.. نحن نحتفل اليوم برجوع، البحر...

لست راغباً في فقدان تلك المنطقة الواعية من دماغي..



أحسست بأنني لن أستطيع مغادرة المدينة أبداً.. لقد وضع رجالهم المتاريس في سكتي.. فرضوا علي الأبواب حظر الخروج .. كنت أراهم في كل مكان أتواجد به.. عين الإنجليزي تبصرني، عين الهلباوي.. لا مناص من التحدي.. أشفط.. أشد.. أملاً صدري بالدخان.. الدخان في رأسي، في جوفي .. يتسرب إلى شراييني.. الدخان يندفع من تحت منخاري كثيفاً، أسحب .. أكتم أنفاسي.. يتوهج جلدي.. يتخدر رأسي.. تتعدد بذهني الوجوه، العيون.. أركز كل تفكير في المنطقة الفاصلة بين الوعي واللاوعي، بؤرة انسحاق معاملاتي اليومية فلأدرك - جيداً - بأنهم ينوون تخديري.. إنني واع.. وأني لو تحدثت، فلن يخرج حديثي عن المؤلف، فلأكتم بقاع ذاكرتي كل ما يمكن أن يكشف عن تعلقي المجنون بدلال، بأولئك القاعدين أمامي، وبالمعمرين، .. أشد.. وهم يشدون..

(اتسعت تجارة الفولي والكشك، صار مأوى المتعبين من كل صنف ولون تتلاقى القلوب، الأبدان.. يشربون الخمر.. الحشيش.. اكتسى ذراعاً زمردة بالغوايش الذهب.. كانت جليساً محبباً لمن يريد الصنف.. (أدمنت الحديث الخليع والعرق، والسجائر الملفوفة) أشعر برغبة جامحة إلى الضحك، .. ها هم يتخدرون، وأنا أفكر، والدنيا تدور .. تطلعوا إلي وكنت أضحك بالفعل.. وأدركت على الفور أنني لم أنبس بكلمة وحداة بعد.. وكنت قد توقفت عن الضحك .. كانت أعينهم تبدو كحبات الخوخ المعطب، المثقوب، وكانوا يطيلون إلي النظر، ويضحكون، لم أكن مسطولاً ليحدثوا في.. هكذا.. ابتسم - لشكل رعوسهم المرصوفة كثمرات البطيخ الملقاة فوق رصيف الشارع العمومي، تتدحرج، فأضحك.. يحاولون تبادل الكلام.. لكن.. أستحلب الجوزة بعد شعوري العميق بالانتشاء.. أنا منتشي، وهم يرقبون وجهي غير منتشين، خلت وجهي محقوناً بالدم المتجمد، متضخماً، مليء بالدهن، ثقيلًا، و"دلال" متعلقة بأطراف أجفاني.. ضحكت منهم.. قال فتحي وهو يضحك:

- يبدو أنك فعلت معها الكثير ..

نحيت "دودي" عن أجفاني، وفكرت بزمردة، وصوت الحاج السباعي يقول، (يوما ما صرخت زمردة في وجه الفولي أن يبطل منح العيال .. الهلباوي .. وعلي.. مشروب عرق البلح المعتق والبيرة. لكنه أبى. وكان يسقيهم ويعترض قائلاً بأنهم رجال ويجب أن يطلعوا شجعاناً، ويواجهون مثلي الدنيا السوداء.

- ليلة أمك سوداء.

قالها علي الإنجليزي، فانتبهت متوجساً.. كان حلقي مغلقاً وقد تأكدت من ذلك عندما ناولني رامبو طرف البوصة ورفضتها.. ضحكت. رغم ذلك. فاغتاظ فتحي، وقال علي:

- أما أنت يا ابن .. يا عبيط ، كيف لم يؤثر فيك الحشيش..



أيقنت من أن فاهي لم يخطئ. فضحكت، وتماسكت، فما زالوا يحاولون تخديري،
أطلت النظر إلى علي وفكرت في شتم أمه زمردة.. لكنني فكرت في المعمرين (ليس هناك
فرص متاحة لإدخال الصغار المدارس، المدارس للإنجليز والأغنياء وذوي الوظائف، نحن
فقراء على الرغم مما نملك من مال، أصلنا على ظهر أدينا، دعيهم يشربون البيرة، إنها تقوي
القلب وتحرك الرأس، وتساعد البول على الجريان.. في البيرة فوائد جمّة يا زمردة..)

كان رأسي يهتز إعجاباً، وضحكت،.. جز الإنجليز علي أسنانه. قلت:

- لا تغضب.. حشيشكم مضروب.

اندھش علي ولزم الصمت، سحبت نفساً، فقال:

- أنت من؟

- أنا الغلبان.

- من أية داهية جئت لنا؟

- جئت من بطن أمي وصلب أبي، وضحكت، زمجر رامبو وقال:

- اعدل نفسك مع البيه يا حمار.

خالني غير معجب بالبك؟ هراء. كل بكواتنا يبعثون على الإعجاب، والدهشة:

قال رامبو وكأنني قلت ما لم يرقه:

- البك هذا أفضل من أمك..

ضحكت، كان رامبو مسطولاً لحد عدم التفرقة بين البك الذكر وأمي الأنثى، خيل إلي

أنني ضحكت. فلزمت الصمت.

بإمكان رامبو أن يطعنني بمطواته الآن، قلت:

- أتحسب نفسك الوحيد الذي يحمل سكيناً؟

كان الليل يتسرب عبر المدينة، ينفض، وبعض المشاركين.. تركوا عن عمد..

الهللوي والإنجليز، بدا السراق مهجوراً.. مقاعد متفرقة، موائد تحمل الموائد وبقايا من

جمرات متقدة، البحر مركون، نهض وانساب إلى الخارج كفأر دائخ.. تبعه رامبو.. ثم سار

"تحت أبط" نحو شارع دلال. وكنت أتبعهم خارجاً في حين استوقفني علي ليقول لي:

- تعمل مع من يا ولد؟



فأفحني هواء الليل البارد. أدار رأسي.. أشياء حميمة قد نسيته، ثقيلًا كان رأسي.. أحسست بالتفاهة بالمقارنة مع نفسي منذ حين.. فكرت في التقيؤ، إفراغ جوفي، لكن معذرة، فالمخدر بالدم.. مهمتي الآن هي التركيز الشديد..

بيتي لا يزال بعيدًا، وكلما رفعت ساقي تخلت عني رغبة المشي، وخلت بيبي يبتعد.. لن أشرب بعد الليلة، لن أتفوه باسم دلالة.. أهذا هو بيتي؟ سلمه مستطيل.. الليل الأسود ينم فوقه، محشورًا فيه. وأنا أترنح، يمينًا وشمالًا.. السطح المندي، الباب الموارب.. بابي موارب! الليل يوشك على الرحيل.. بل يرحل. شربت كوبًا من الماء والملح المذاب، رغبت في النزول، في الشارع، يروقني، كنت أفكر وأنا أهبط السلم. الآن، في الليل الراحل، الشارع شبه ميت، وأنا شبه واع. رجال الفراشة يفكون السرداق.. البحر على القارعة ممسكًا بكوب شاي، تعبًا كان، مسلوبًا وعيه.. هواء الفجر المندي يزيد الرأس انتعاشًا.. لماذا لم يدخل البحر بيته.. حتى الآن لم يدخل؟

وكان فتحي مقرفصًا، وحيدًا، منبؤًا.. تحت نافذة دلالة، إلى جوار كشك عم مرعي المغلق، كأنه ينتظر شيئًا.. لا بد وأنه ينتظر الفجر؟ الفجر؟ والبحر؟ ماذا، ترى ينتظر؟ ما العلاقة بين بقاء البحر على الرصيف، وانكماش فتحي تحت النافذة؟ لم أشعر بالبرد، تواريت، لأرى أيهما سيترك مكانه أولاً.. ويذهب، هما بعيدان وأنا بعيد.. غمرتني نشوة "دودي" الآن تغط في النوم، ولا ترغب في أحدهما.. تبسمت لتلك الأفكار، واعتقدت بأن لتواجدي في المكان معنى، لم لا. ها هي "دو" المعشوقة لقلبي تمارس مكانتها القوية عليهما.. سررت لهذا وتناسيت كل شيء، حتى بابي المفتوح بأعلى نسيته ونسيت الذي يمكن أن يكون قد واربه.. لكن بغتة، باغت شعور السرور لدي ضوء يترامى، يسقط.. ينبسط على الأرض من داخل المدخل حتى منتصف الرصيف.. هناك أذن باب فتح، ثم تلاشى الضوء بانغلاق الباب..

كان الهلباوي بطوله الفارغ، قفطانه الأبيض، يغادر المدخل، متسللاً إلى شارع السلام.. ألجمت الدهشة لساني.. نهض فتحي وانصرف.. ثم لمحت البحر وهو يتناوم وكوبه الفارغ محطم إلى جانبه.. كنت أتحرك ببطء نحو جسد البحر.. سألته، والحقن يفري تلافيفي،

- الهلباوي كان بالداخل.

تأملني مليًا وقال:

- أعرف. كان يتبول بالداخل.

رفع جسده عن الأرض بصعوبة.. غادرني، قلت:

- لماذا لا يتبول في بيته؟



التفت إلي، قائلاً:

- لي الشرف بتبولة في بيتي..

انقبضت مصاريني.. بعد سنوات أربع أشعر بحنين جارف، فائق، يشدني إلى بيتي القديم، كنف طفلي، امرأتي، تلك التي تمتعت بقدر مذهل من الوفاء.. استشعر الآن الخطأ الفادح الذي قمت به يوم هجرت البيت .. دلال متردية في العبث، الضياع، الخيانة..

أشعر الآن بأهمية تواجدي، هناك بجوار امرأة عشقتني بحق.. امرأة باقية لا تزال، منكبة بكل مشاعر الأمومة على صغاري.. لم تروعي يوماً بطلب الطلاق، أو تدهشني بضرورة إعادتها تجربة الزواج من رجل آخر.. كان لا بد الآن أن أعود، أصل ما قد انقطع، لكن كيف؟ كيف أعيد ما قد يكون تآكل، انطمس، من حب؟ كيف وأنا بين فكي أسد؟

أوعزت أفعال "دو" وأبيها لقهر الأقطاب.. لكن.. كل شيء أصبح متوقعاً أو باعثاً على الدهشة.. الليل المخنوق، المتسرب ببطء، والفجر الآتي بكسله المكتتب، الصمت الرابض بأركان البيوت.. بيوت انتصبت على أرض ما زالت رملية..

أحسست بأن أحدهم يتابعني، يتعقب خطوي الثقيل.. يبدل أمر "دو" الذي روطني بخوف يتولاني.

ولجت من شارع البستان إلى شارع السلام.. كان طويلاً ومتعرجاً.. تترفع منه أزقة ضيقة، مدفوس بزواياها سكان ضحلون، ارتضوا الحياة في صمت، لا يقربون شارع السلام إلا قليلاً، حين يسرحون أو يعودون.. فإن ارتآه أحدهم، فلا بد أن يحاذر.. ليس بالشارع عفاريت أو خطافون أو سكارى.. لكن هناك شيئاً مهيباً يمس القلوب منهم ولا يدركونه، عليهم أن يتجنبوا النظر لبعض سكانه، لو كانوا بالنوافذ أو الشرفات، وقلما يقف أحدهم بالنوافذ.. العجر المتقدمون لا يطلون من النوافذ.. دائماً نوافذهم موصدة، كأنهم يصنعون المهابة وراء الجدران، بيوتهم عالية وسميكة، قائمة على أساس لا يعلم متانتها سوى "الفعلة" الذين رموه، أبواب مداخل البيوت من حديد، تعلو الدهاليز الرخامية المرتفعة عن الأرض بنصف متر، أبواب مغلقة ومطفأة الأنوار..

مطمئنون كانوا إلى حد الرهبة..

تطلعت خلفي موقناً بأن الذي يتابعني.. لا يزال يتابعني.. توقفت قليلاً، تماكنت نفسي المضطربة.. وقد حدثتها بأن كل شيء قد اتضح الآن، فلا داعي للخوف.. فهم رجال - حتماً - وديعون.. حركوا الحياة في سبيل البقاء والنقاء، وضحكت على رغمي - سرت، عله يواصل متابعتي، ويلاحظ سخريتي منه.. تحرك هو.. توقفت، فتوقف.. توارى وراء عربة، فسرت منعطفاً نحو شارع.. أرض حجر، بهدوئه الغريب، كنت أسلكه قبلاً فأرى الرجال



أسرى المخدرات يتعاطون كل شيء علناً .. كان شارعاً طويلاً وموازياً لشارع السلام.. أوله محطة ركاب قطار الظاهرية وآخره الحقل المسور.. توقفت.. وتوقعت إشهار مطوأة في وجهي وإرغامي على أن أخرج ما معي، فاضطربت.. أيمكن أن يكون لصاً .. ؟

* * *

إن كل أبناء الحي - تقريباً - الشرفاء منهم واللصوص أصحاب الليل وأصحابي، لا يشهرون هنا المطاوي .. فإن كان - هذا - يحمل مطوأة، فإنه غريب على المكان وما جاء إلا ليسطو، فاضطرب أكثر.

في الخرابة الممتدة على جانب الشارع وقفت أتبول متعمداً، فليأت الآن ويغرز نصله في ظهري.. كان خيالي ضئيلاً بشمالي، والقمر عاليًا على يميني، والمراقب أيضًا على يميني.. حملت قالب طوب، مسحت به نفسي وانتظرت أن يدنو.. لكنه لم يأت، ولم أرتح لذلك، فعدوت نحو شارع المسجد، لعلني التجأ إلى أحد الدكاكين المفتوحة الآن، في الفجر، فقد استبد بي الخوف باختفاء المراقب عني.. دكاكين غائرة في البيوت، لم تكن تلفت نظري من قبل الآن.. وكانت معبأة بالأجولة والبراميل وأسياخ حديد التسليح، كتل الأخشاب.. وذكريات اقترنت بعهد الفولي ومعسكرات الإنجليز.. كل المغاليق التي كانت في ذهني تنفتح الآن، وكأن الزمان هو الزمان الحالي، بشكل أكثر تنظيمًا وثراءً وحكمة..

بحثت مرتعباً، عن مراقبي المتواري لعله يباغتني بمطواته، لكن باغتني أحد الخفراء بنابوت شهره في وجهي، فعدوت عائداً..

بلغت مدخل بيتي، دفعت الباب وأقبلت إلى الظلمة.. وثب المراقب في وجهي مذعوراً، فانكشمت.. كان السوري، اندهشت وهو يقول بغضب مكظوم:

- لماذا تتابعني؟

- أخذت نفساً عميقاً ، وقلت:

- أنا الذي أتبعك؟

- أنت تعمل مع من ؟

- أنا .. ؟

- مع أي ضابط تعمل؟

- لست أعمل مع أحد.

- هزني بقوة كأنه ينفذ عني الخوف، قال:



- أنت جبان.. لماذا تراقبني؟ أنت قلق..

تهدج صوتي..

- كيف أراقبك!

دفعني، وقال وهو يغادر المدخل:

- اصعد بيتك، لا أريد رؤية وجهك..

السوري اللص المحترف، خفاش منازل ودكاكين المدينة، يذهب مع الليل، ويعود بمسروقاته مع الفجر.. يهددني، لابس ثوب الميكانيكي بالنهار ليوحي للناس بأنه سمكري سيارات، يهددني.. قال وهو على الباب:

- قلت لك اصعد، .. قلقت دماغي يخرب بيت..

لم أرد ، فقال بضجر:

- أنت مرشد ؟

- أنا مرشد ! بعد بقائي معكم كل هذا الوقت؟

زاحني لأصعد ، قال:

- حتى لو كنت مرشداً.. أنا لست تاجراً..

وتركني، وعلى الأرض حقنة ملقاة بها بقايا من دم دافئ، صعدت غرفتي بين اندهاشي وخوف قلبي، وروعي، لمعشوقتي التي طعنت القلب مني، .. كان بكل طابق رجل شرير يتعقبني، سوف يفاجئني بسكين.. ضايقتني هذا الشعور حتى أغلقت علي بابي..

مددت يدي لزر النور.. توقفت.. ربما يرون ضوء شبابي، يعرفون أنني ما زلت يقظاً.. مازجتني التفاهة، وخطر في ذهني إمكانية وجودهم بأركان الغرفة، فأضأت النور على الفور.. طالعتني الكتب المتناثرة على الرف الواحد. اجتذبتني المنضدة والمقعد، وأوراق تركتها منذ أمس..

فكرت في مدى توجسي الذي بدأ يلزمني، وحتمية الرحيل عن هذه المنطقة.. بعد أربعة أعوام تود الرحيل؟ إنك لم تتحدث إليها حديث المحب.. لن تفهم هي الشوق الكامن في عينيك أفعالها وطريقة حديثها إليك محفوفة بالمخاطر، تحدثك دائماً حديث الجار للجار.. أنت مجرد جار فقط، وهي متردية في بئر العشق مع الأقطاب.. أنك تتحدث وتتلعثم، يدق قلبك وتضع في حساباتك احتمالات بث العيون من حولك، تمنعك من إطالة النظر.. أحسست بالأسى لنفسي.. عاشق أنت، وممسك بطرف حبل العشق وحدك.. لو ملأت الدنيا بأشعارك وقصص رأسك الحالم، لن تفهم.. لقد خلقت هنا.. وحتماً نالت ما ناله العجر..



كانت تسن لسانها السليط، منغم النبرات لكي تشهره في المعارك، وكنت أعلم بأن هذا الصنف من النساء الشرسات، لا يعرفن الخيانة، الوداعة والهدوء.. فقط يعشن ليأكلن ويشربن ويمارسن الجنس من باب الواجب اللذيذ.. يتعففن عند خلع ثيابهن، حتى لأزواجهن، وتشعر بعضهن بأنهن قمن ليلاً بالفعل المشين، فعلاً لم يكن يرغبن فيه، مما يجعلهن يتشاجرن - في الصباح - مع أزواجهن، أو يتدللن بشكل سافر يغضب الأزواج، فيهرب الرجال من البيوت إلى الشوارع والمقاهي.

لكن أشعر بأن دلال خامئة أخرى، لم تكتشف بعد، أو لم تكشف هي عن خباياها.. ربما لأن التقاليد والعادات والانغماس في المكان والعيال زاد من أساها، وقتل أحلاماً شتى كنت ألمحها في عينيها وفي تلك الأشياء المعدنية التي كانت تتحلى بها، أقراط وسلاسل وأساور.. أحلام قابضة في العينين، فقدت القدرة على مجرد التفكير في منح أحد فرصة اكتشافها.

ومضت في رأسي فكرة اكتشافها، فاستشعرت راحة تداعب خيالي.. زهرة هي في مستنقع آسن.. علي بانتشالها، ولو كان ذلك على رقبتني، لكن أصدقاء الحي، الحوائط الصماء، يضحكون مني، فأرى قرون الاستغلال على أدمغتهم، فقد استطعت أن أنال، بخيالي، ما لم ينالوه.. أنا الصديق مجهول الهوية، أصنع منهم مغفلين، قاطعو الطرق.. شاربو المخدرات.. سارقو المجتمع.. صانعو الشهامة الكاذبة في المكان.. نكست رأسي، أنا الخائن، كما يقولون عني، أعاشرهم.. بين رأسي الواجب فصله وقلبي الملتحم بها، يقفون، بين ابتعادي وأشواقي ومشاعري العذبة نحوها يقفون، .. هم الآن في كل الأمكنة والزوايا.

تطلعت حولي على الرغم من خلو الغرفة.. لمحت فوق أريكتي دفترًا صغيرًا، وثبت إليه مدهشاً.. أذكر أنني لم أره لدي من قبل، فكل ما كنت أكتبه، أخطه على ورق مصلحي قديم.. كان أحدهم قد اقتحم بيتي أثناء غيابي.. فحصت أركانني بعين حذرة.. لم يكن هناك ما يبعث على السرقة.. جلست وفتحت الدفتر.. كان مكتوبًا بخط رديء وغير مركب المعاني.. وكان عليّ أن أعيد صياغة هذا الكلام المكتوب، أعرف أن احتمال ضره يفوق احتمال نفعه.. لكنني فعلت..



(٥)

لصوص تأيرون

المدعو.. فلان الفلاني.. مواليد حي راغب باشا، إسكندرية بطاقة عائلية رقم، كذا، عامل، مشاغب، بشركة النحاس، مراوغ، خاصة في مسائل السياسة والغلاء.. متزوج من فلانة ابنة فلان موظف الجمارك الحرامي، ست بيت.. لك منها طفلان، هارب من بيت الزوجية لخلافات ومسئوليات لم تعد لديك القوة لاحتمالها؛ لأنك تدعي يقظة الضمير.. أبوك الغلبان مات في سنة .. كذا، دخلت السجن لأمر جاري البحث عنه.. أمضيت كم سنة في السجن يا كلب أمك؟ أنت خبيث وابن ولن تصل إلى شيء مما تفكر فيه.. كنت مندهشاً.. لو كنت بحق مرشداً، فأنت خائن وأمك زانية فيك. وأنا أرشدك على نفسي.. أنا الهلباوي..

وقد أعلموك الشيوخ الخونة من أكون أنا.. جاءني خبرك القصير، البغيض منذ وقت قليل.. خطونا الفادح أننا تركنا أغراب البلد يصلون في أرضنا، لكنني أستطيع أن أشتريك، أنت ومن بعثك إلينا أربعة أعوام، لتحصي علينا حركاتنا.. أنت خنفسة، ونحن ذئاب هذه البلد.. إنه الخزي، أن تتلصص على بيوتنا،

.. أنا الهلباوي..

ساكن البيت الأول، من شارع السلام.. هذه الشوارع نحن الذين وضعنا أسماءها.. بيتي على يمينك.. يا ابن الصرمة، بيتي العالي، الواقف كالجبل في عز العواصف.. أظنك تعرف مسكني جيداً، وتعرف أنني أسكن الدور الرابع.. شقتان متقابلتان، لي ولعيالي الشبان، طالبو العلم في مدارس الأجانب، فالبيت ملكي، والشارع ملكي. وأحيطك علماً يا أضعف من بعوضة، أن رئيسك المسكين أجبن من أن يفسر لي معنى أن يجند تافهاً مثلك ليراقب أسياده..

لماذا يجندون الحثالة لمراقبة الأثرياء؟.. إلا أنه مستجد على المكان؟ إن لم يكن يعرف من أكون فليسأل الضابط السابق عني، فهو يعرفني، ويعرف أنه لم يعد في البلد ما يشبعني، بلادكم أعلنت الإفلاس بعد توقف الحركة فوق أرصفة الجمارك.. أوصدوا كل أبواب التنفيس، أصبح الجو جافاً، أصبحت العيون مغبشة، لا تبصر إلا من خلال المناظير المشوشة بالرشاوى.. يا صرمة يا ابن الصرمة، ليتنا عرفنا خبرك من قبل.. قل لمرسلك العبيط، إننا نسترزق من الخارج، نأكل عيشنا مغموساً بالقطران.. نذهب ونعود بالعملة الصعبة "البلد" بماذا أتيت أنت؟ تبحثون عن الجوعى المتوارين في أركان الحي، لأنكم جوعى. فنحن لسنا مساكين، نحن نمتلك وأكثركم يعرف من أكون.. أنا الهلباوي.. أجلس الآن في قلب بيتي.. على يميني عيالي.. وعلى يساري الجوزة والموقد والخادم الأعور العجوز..



لا يسطلني سوى الحشيش الطازج.. أشتريه، وأبيعه، وأشربه، مع عيالي. ثم أمارس الجنس، يا ابن الحرام، بقوة شاب ابن صرمة مثلك، يحتضن بالليل الوسادة، أو يحلم بامرأة مثلك.. لن تنال شيئاً من البنات دلال، امرأتي هي، الساعد والأصابع، ترحل وتعود بالنقود لتنفق على كتيبة أفراد..)

انكشيت .. توقفت قليلاً.. أستعيد ما توصل إليه رأسي من اندهاش نحييت الدفتر بإهمال.. لكنني تناولته، وكأن الهلباوي ينهرني ألا أتركه..

(أقول لك يا ابن .. إنني لم أطلق لحيتي حباً في المظهر الوقور. لكنني أطلقتها منذ بدأ قائدك الأعلى يللم الذقون من السكك والمصانع والورش والجوامع، ليودعهم السجون. كانت رغبتني أن أعاند قائدك.. ولا أكذب على أمك يا ابن الزانية. أنني منعت عن نفسي كل ما هو حرام.. بخذي الأيسر خدش طويل يبدأ من شق العين حتى أسفل الذقن. ضربني أحدهم – ذات ليلة – بمطواة وفر، ظللت أتبعه شهراً، حتى توارى يوماً بقسم البوليس، هاجمته هناك، وقطعت أذنه بمطواتي، ولم أفكر في الجري، كان معي نقود، أفهم..؟ نقود.. كانت هذه هي بداية إطلاق لحيتي، وإن أردت الدقة لتتقل قسمات وجهي لضابطك الغلبان.. فإنني كالنحلة.. عيناى جاحظتان.. حمراوتان، كجمرتين متوهجتين.. أقعد على أطراف أصابعي.. كقط متوحش.. متوفز.. أخبئ رعوس أطفالي بشعر صدري، على ذراعي الأيمن وشم أخضر، لقلب أسد، منجلة وتاريخ ميلادي، المعروف لدى الحكومة.. أصلي وتاريخي واسمي على ذراعي.. أتعرف أتعرف ماذا أعني؟ ليسوا برأسي.. كل شيء قابل للتغيير، المجابهة، الكشط والإزالة.. وأن تعسر الأمر، أقطع الذراع، ولك أن تضع في اعتبارك، أننا سوف نفتلك عند أول بادرة شر تصدر منك.. لا تغرنك الذقن.. إنها تخفي الكثير من البغض)..

أغلقت الدفتر، وقلت في نفسي.. لم يأت تخمينه في مكانه الصحيح.. حسبي مرشداً كما فعل هؤلاء المتخفون تحت إبطه.. يأتونه بالأسرار والأخبار.. ضحكت على رغمي.. إنه لتافه بالفعل، وإلا ما قص علي جانباً من أسرارته، توجست، فإن ما قصه علي يعتبره، وهذا مؤكد قوة وجبروت، فهو لا يستطيع أن يسلط أحد صبيانه ليقتلني ليلاً، ولم لا يفعل؟ قلت في بالي، إن هذا الموضوع الرهيب يمكن معالجته معه شخصياً.

باعترافي الكامل بأنني مجرد مواطن بسيط، انبهر بما يظهرونه من جبروت، وهذا على أية حال، أخف وطأة مما يمكن أن يلحق بي من عشاق دلال، هؤلاء المتهورون، لكن في كلتا الحالتين، محاصر أنا ومقتول..

* * *



تصالبت الشمس فوق البيوت والشارع الذي شهد ناسه المتطفلين، وقوفاً كانوا فوق الدهاليز، خلف الأبواب، فيما وراء النوافذ المواربة، يتطلعون بأعين ترددت فيها رغبات النظر إلى عربة نصف أتوبيس، توقفت بعد زحفها البطيء، قدام بيت "سكر" المواجه لبيتي، بيت قصير، قميء، بطابقين.. كان ركابها الذين لامست رءوسهم سقف العربة قد بدءوا يهبطون واحداً بعد واحد، ثم هبط رئيسهم المتأنق إلى جوار السائق، كانوا يتقدمون بسحناتهم المتجهمة المسودة، كأنهم يقومون بمهمة يعتقدون في فشلها مقدماً، لكنهم يحاولون.. وقفت مثل كل الواقفين، مشاهداً، لكنني كنت مستغرباً لترددهم في المشاهدة، بين النظر والخوف الخفي..

أسرع المتأنق إلى داخل البيت وخلفه الرجال المعلقة بأكتافهم العريضة ثياب مهرولة، بينما رؤوسهم الكبيرة مغطاة بطواقي لبادية مخشوشنة، ذكرني توائهم ذلك بزمني البعيد، القابع في الذاكرة، حرب السويس، الاستنزاف، فئراناً كنا، مذعورة، تتواشب، تتوارى في الخنادق، ثم هجومنا المروع في أكتوبر..

كانت الأبواب تبتلع بعض المشاهدين، خلف الدكاكين والبيوت، كأنهم يعلمون ما سوف تسفر عنه عملية الهجوم.. اندهشت لهذا الاختباء المفاجئ والقاطع لترددهم والذي تزامن بشكل روتيني مدروس مع دخول الرجال عند أول العتبة.

أوعزت ذلك - لأنني لم أنصرف - إلى خوفهم من هؤلاء المهاجمين، لكنني علمت بعد ذلك بأن اختباءهم، كان تخوفاً نابعاً من إحساسهم، بأن - سكر - حتماً - كان يراقبهم من الداخل، ومن وراء شباكه الأرضي الموارب.. واعتقدت، بأن هؤلاء القادمين، أقرباء حميمين لعائلة سكر، وأنهم - وهذا احتمال - قادمون من الصعيد أو الأرياف، أو هم زملاء عمله الذي لم يكن أحد يعرفه على وجه الدقة.. يقول البعض، إنه "مخزنجي".. وما ذلك الذي يخزنه رجل لا يغادر الشارع ليلاً أو نهاراً؟ الزملاء لا يأتون بهذه الكثرة، زملاء فارغو الأيدي متجهمو الوجوه والحركة والثياب.. يأتون كانوا في أوقات متفرقة من الليل أو النهار.. يأتون بغتة، بلا مواعيد..

اجتذبني تحركهم المريب.. أنا الوحيد الذي تبقى واقفاً، يشاهد الرجال، يوصدون الشباك الأرضي بهبدة غيظ، كأنهم لا يريدون لأحد أن يطلع على مشاكلهم.

أدركت مسامعي بعض أصوات همست عبر الصمت المصاحب لوهج الشمس واحتباس الأنفاس..

.. أياخذونهم معهم؟ أم سيضحك عليهم كعادته؟

ذلك كان يحدث عند قدوم العربة برجالها المسرعين، ولم أكن أحسه قبلاً، أو أبالي به.



ثم أسمع أصوات أقمشة تتمزق.. أواني ترتطم بالأرض، وتتبعثر، أصوات لأرائك تتحزحز.. ثم تفتح النافذة وتتطاير نتف من قطن - مع الأنفاس - إلى الشارع.. أقسم بأنني لم أكن أعرف بأن هؤلاء الرجال تابعون لمكتب مكافحة الصنف، المخدرات، وأن المتأنق هو الضابط "عفت" الجديد.. صدقوني،، الذي أخذ على عاتقه مسئولية تطهير الحي،.. لكنهم غادروا البيت مطاطئي الرعوس، يحدهم أمل في العودة والنجاح.. أحسست بالأسى، في حين اصطدمت عيني بوجه سكر المطل من نافذته.. يبصرني بقرف واضح،، متحديًا، فأطلت إليه النظر.. حريصًا كنت على أن يرى ما يكمن في عيني من براءة وأن يدرك بأنني آسفًا عليه، لكنه بصق فوق الأرض بقوة، بصقة ملغمة وصفراء، كابية، رقدت فوق تجاويف رأسي المرتعد..

* * *

تحتم علي، في الوقت الراهن، أن أطلب حمايتي من البوليس.. أن أذهب وأحدد لهم تلك الأمكنة التي أعرفها، أوصاف بعض الوجوه، فقد بدأ حصارهم حولي يتفاقم، ويزيدني ريبة في إمكانية فراري من بين أيديهم.. فلو كانوا يراقبونني لشعورهم بأنني أعشق "دو" فأنا لم أمسها يومًا إلا في تخيلاتي، في وحدتي، غرفتي، بين أوراقهم وهم بالطبع لن يستطيعوا الدخول لمنطقة رأسي.. وإن كانت مراقبتهم لي تشمل شكوكهم نحو سلوكي ورد فعلي على كل ما رأيته، فذلك أفضح، وفوق قوة احتمالي ولا مناص من إبلاغ البوليس.. فكرت في هذا كله أثناء تقديمي الحذر نحو محطة قطار باكوس، متخذًا أسهل الطرق الآمنة. أو التي يمكن أن تكون آمنة.. أن أكون في مأمن منهم، على الرغم من علمي، بأن هذه الطرق، يتراشق أهلها المريبون على أبواب بيوتهم متفاوتة الطول والعرض، قاعدون فوق الدهاليز والأرصفة، يغزلون خيوط الشمس شباكًا لي، يدخلون ويلعبون الورق، وعادة ما تكون نساؤهن المسترجلات إلى جوارهم، مقرصات، أو جالسات، تغطين سيقانهن المعروقة بأطراف أثوابهن القديمة، يرمون شباكهم حولي.. ولجت من شارع السلام إلى شارع الزهور، ومنه إلى شارع المختار، مدركًا بأن عيونهم منبثة عبر النوافذ والشقوق والجدران الصفيح لبعض الأكواخ.. ترقبني، يرشقون نظراتهم بظهري، فتتعث خطواتي.. بلغت شارع السوق المستطيل المزدهم بالخلق، خيل إلي وقتها بأنني نفذت بجلدي من هذا الموطن الشرس، غير أن خيالي أدرك على الفور بأنني مجرد حالم، أسوس الوهم..

كيف يتسنى لي الذهاب إلى القسم؟ ولو ذهبت كيف تكون العودة؟ العودة إلى بيتي المحاصر بتلك البيوت العالية؟



هل يمكنني الهرب إلى مكان آخر من البلد؟ إنهم يعرفون كل شيء تقريباً عني..
وتابعت سيري الحذر..

داعب أذني صوت "دودي"، يدعوني لم ألتفت وقلت في نفسي، إنك ما زلت تحلم
بالمستحيل، كيف تجرؤ هي وتدعوك؟

لكن النداء تكرر، ليس الوحيد، في هذا البلد المزدهم المدعو بهذا الاسم، وليس الوحيد
الذي يمكن أن يتوهم، فكل الناس يعيشون في وهم هائل اسمه الفرج القريب الآتي، ومع ذلك،
أنا الوحيد الذي يمكنه أن يتوقع سماع صوت دلال، في كل زمان ومكان، أن يستحضر شكلها
نداءها، توقفت متلفتاً .. أهو حلم .. ؟

هو صوتها المرتفع الذي لم يكن يخشى خشية لوم. قالت في ضيق وهرولة:

- ألم تسمع ؟ انتظر.

مبهوتاً كنت واقفاً.. ملتصقاً بالأرض، تلك التي تربطني بها أوامر صلة رحم،
أرضي، صلة غير متاح تلاحمها، .. توقفت أمامي وخف قدمها يتوقف عن إثارة الأغبرة.

مسحت بصوتها المتهدج، كانت تجري، كل هواجسي، ارتجفت أوصالي لمجرد تخيلها
وتذكرها وهي تتبع خطوي وسط السوق، وبين احتمالات وجود بعض المعارف.. لكنني
نسييت، حتى تواجدي..

قلت بخلجات نفس مسحوبة إلى جوف يتقلص سعادة:

- كم أنا سعيد برؤياك.

ابتلعت ريقها بأنفاس متعبة، والشارع يعج بالخلق، باعة الخردة، والثياب القديمة
وأكشاك الخضر المتواجدة بحذاء سور شركة البلاستيك القديم.. لم أحول عنها بصري..
وجهها الأبيض المخلوط بالحمرة قبالي، معكوساً كنت في العينين السوداوين، أنفها المبطط
يشم رائحة أنفاسي، شفتاها الشهيبتان تلفظان كلاماً غريباً، عذباً، ينساب في وداعة تلهب
الأعصاب.. شفتان لا يزال أحمر الأمس يصبغهما..

قلت بصوت حاولت أن يكون متزناً:

- ماذا كان يفعل عندك الهلباوي؟

امتقع وجهها وكأنما بوغنت.. قالت:

- هذا ليس وقته.

- لكنني..

قاطعتني قائلة:



- خذ بالك .. إنهم يعرفونك جيداً..
- ما الذي أحذر بعد تخوفي؟ قلت وكأنني أجد، أخيراً من يصدقني.
- أنا لست مرشداً..
- أصدق ما تقول.. لكنهم لا يصدقون..
- لقد جندوا أنفسهم جميعاً لمراقبتي.
- خذ بالك جيداً..
- .. دودي .. تحذرنى .. تتبعني لتحذرنى؟ على الرغم من كل شيء، استشعر السعادة، ما كنت أتوقع أن تحذرنى هي، تهتم بأمرى.. كنت أخافها أحياناً.. أخاف لسانها السليط اللاذع الذي لا يتورع من شتم أقرب الأقربين لها، لو زاد في التعامل معها عن حد الأصول، "دودي" بجمالها الصارخ الشهي، بأسرارها المخبوءة المحيرة، تلاحقني، أنا المتخيل .. تواجهها دائماً معي ، تحذرنى؟ مأوي، تواجهني، تبثني شعور الصدق، بعد أربعة أعوام، ضربت فيهم أوتادي بأرضهم الجديدة؟ أراها على وجل بصدرها القوي،، تحدثني وحدي.. قلت:
- جئت بعد بحث منك عن سكن يأوي بدني وكتبي وهموم موطني فأجذك؟
- قالت في سرعة:
- هم قوم طاغون، لن تقدر عليهم .
- أتريد أن أترك الحي؟
- لا أقصد هذا .. ولكن حاذر.
- قلت ، وما زلت أبحث في عينيها عن وطني المهتز:
- تخافين علي؟
- أجفلت لحظة ثم قالت:
- سمعتهن يتحدثون عنك..
- قلت على حذر:
- يوجد في البلد حكومة .. أمن ..
- استغربت لسؤالي.. غير مدركه، قالت:
- ماذا تعني بأمن؟
- حكومة..
- تهكمت قائلة..



- حكومة؟ أنت إنسان خيالي..
- يجب أن نفعل شيئاً..
- الحكومة نفسها تتجنب التحرش بهم .. أهم ناس عاديون؟
- وأنت .. أأنت منهم؟
- قالت في دهشة..
- أنا لست هنجرية.. أبي فقط كان يعمل عندهم.
- اختلسنا للشارع نظرة.. أردفت تقول:
- إنهم يمنحون المخبرين نقوداً، رواتب شهرية..
- والمخبرون بالطبع ، يعرفون عنهم كل شيء؟
- تقريباً..
- لماذا إذن يطاردونني؟
- المخبرون معروفون، واضحون، أما المرشدون، فإنهم خونة، لا يؤتمنون على أسرار.
- أعرف أن المرشد، هو بائع سابق، خريج حبس، يجند بمعرفة الضابط ليكون مرشداً، فهو أعلم الناس بمكان موزعي المخدرات.. وغالباً ما يرفض بعض المزمع تجنيدهم قبول العمل مع الضابط خوفاً من هؤلاء البائعين والتجار القتلة.. لكن الضابط يعده بأن يكفل له الحماية، وحمايته - كعرف متبع في الأقسام - هي متابعة المرشد، ثم ضربه - أولاً - عند كل تفتيش، أو الاعتقال "عند القبض" التمويه، بحيث يعتقد المقبوض عليهم بأنه - فعلاً - صديق صدوق لهم. كان بحق معهم، أما الرافضون منهم، فهم واقعون - لا محالة - تحت طائلة الضباط، قسوة الضابط، مراقبة المخبرين، يظلون مطاردين في مساكنهم، ولا يتورع الضابط عن إلصاق التهم بهم بحجة أنهم "سوابق" وإعادتهم إلى الحبس.
- كانت تتباعد عني رويداً.. وتقول:
- اذهب الآن ..
- قلت بصوت متهدج:
- لم نقل ما كنا نريد قوله..
- كنت أنظر لوجهها المتباعد، علني أرى تأثير كلامي، كانت سمة التخرج الممزوج بالضجر تلوح عليه، كأنها توقعت مني سماع هذا القول، فقالت:



- نحن لم نترك المكان بعد..

وغابت بين الناس.. حقاً.. لم نبتعد بعد، سوف نتلاقى ثانية. ونتحدث، كثيراً.. كثيراً.. وليت شطر المحطة وجهي.. شغلت رأسي.. على ناصية الشارع، استوقفني فتحي، جامداً غاضباً.. ينفخ ضيقه في دخان سيجارته، توجست.. لقد تعتمد مراقبتي.. لم أبال، وتابعت سيري نحو المحطة، حتى ابتعدت.. التفت خلفي. كان قد اختفى فيما وراء سور الشركة، القديم.. تحققت توقعاتي على المحطة.. لمحت وجوهاً أعرفها جيداً. تلوح من بين زحام الرصيف، السوري، حسن رامبو، وآخرين لم أعرفهم..

الآن. كل شيء أصبح واضحاً، وأنني - فعلاً - تحت مراقبة شديدة لحد الشعور باللامبالاة. فليفعلوا ما يروق لهم.. إن كل ما يشغلني الآن هو حديثي مع "دو" شعور النشوة والابتهاج وتلمحي لها بأنني أحبها - وركبنا القطار..
"كانوا معي".

فكرت كثيراً في أمر دلال حين أفقت من روعة اللقاء..
التحذير، الخطر المحدق بي.. فكرت بدت لذهني كومضة كهربية نبهت حواسي لذلك الخطر الداهم، . وكانوا حولي..
كيف توصلت هي لمعرفة ذلك الأذى المخطط لي؟ كيف وهم الذين يفعلون في سرية بالغة، وكتمان فائق..؟

"كانوا يتملصون عبر الأجساد المتلاصقة بخفة ويقتربون مني"،

كيف وهي القابعة في كنف بيتها لا تغادره إلا قليلاً؟

"كانوا يطوقون بدني عن قرب"

تخيلتها كثيراً كوردة أسيانة، متفردة فوق عودها الشائك، في بستان ورده ذابل.. لا يقربه خولي، ومع ذلك تحتفظ بهذا الجمال الأسر، جمال رائق، لا يذبل، الأخريات يذبلن، يضربهن الزمن المتقلب وهي كما هي.

يتطلع الرجال إلى شباكها بخبث، ويمضون تحت نظراتها المتعجبة..

شغلني ذلك حد الألم.. حد الشعور بأنني وضعت بين فكي أسد شرس، بين العشق والخطر، أهي حقاً على صلة بهم؟ هل يفشون لها عن أسرارهم؟ بعض الرجال في لحظات المضاجعة واللاوعي يتحدثون جزافاً.. هل هي تمتص أسرارهم مع النخاع؟ أعوذ بالله، لكن الشواهد تدل على ذلك كله.. أبداً لم يكونوا على هذا البلبه والتفاهة بحيث يبيثون الآخرين نواياهم، خاصة إن كانت تلك النوايا تتعلق بالقتل، أو الابتعاد..



أعرف أنهم يملكون ثلثي شارع السلام، وبعض النواصي، فهم الذين خططوا وأطلقوا على الشوارع أسماء.. وليكونوا على دراية تامة بمفارق الطرق.. لكنهم لم يكونوا يملكون شيئاً بشارع البستان، هذا المتطرف قليلاً عن شارعهم الكبير والتي تقطن دلال والسباعي بيتاً فيه.. بينها وبينهم مسافة خمسمائة مترًا، تتخللها البيوت والدكاكين والأكوخ الصفيح والخشب والرجال، رجال يتحلون بالصمت، الصمت المدهش.

أحسست بقسوة التفاهة نحو نفسي.. أنا المحب الواثق الحالم، المصفوع، المبصوق، المعتقد بأنه العاشق الوحيد الذي وضع لجمالها مقاييس جديدة، لا تقارن بهؤلاء النسوة المتلقيات على الأرصفة والدهاليز، أنا المعتقد في مسألة اكتشافها، ذلك يسعدها ويطربني، حين ألمح لها بأنها أجمل نساء أرض الفولي، تجفل.. يستغرقها الشرود والصمت، كأنها غير واثقة من كلامي أو أن هناك جميلات، مثلها، وأفضل، وأني أقول ذلك مجاملة ولكوني وحيداً بلا زوجة فلا أقوله أنا، بل الرغبة المحبوسة داخلي هي القائلة، لكنني صادق فيما أقول، ويأخذها الشرود.. ربما لشعورها الخفي المشوب باللوث، هذا اللوث الذي يتبادر إلى ذهني، مصحوباً بجمال فائق يسقى بماء آسن.. لكن ما أدراني؟ لماذا يعتريني الغضب؟ ولم أغضب؟ لعل ما فكرت فيه كان وهمًا، خيال كاتب هاو،.. الحب أيضاً وهم، العشق وهم، البقاء بأزمئة التعايش الجنسي كان سراباً.

ما حيلتي لو كانت معشوقة لكل الناس؟
أليست هي التي سعت إليك لتحذرك؟
أكانت تعلم بحبك المخبوء؟ إنها تبادلك نفس المشاعر، تلك المشاعر الوليدة، المبتورة، المحجوزة بأربعة أطفال ورجل، سد خانة..
أيعلم سد خانة بما يدبر لي في الخفاء؟
وإن كانوا جميعاً يعلمون، لماذا يلزمون الصمت؟ وماذا تراهم يفعلون؟ أيزهبون مثلك لقسم البوليس؟

أيتحملون مثلك، أيها الحالم، قسوة التفاهة.. التفاهة؟
أحاطوا بي، وكان علي أن أهبط في أقرب محطة وأستقل القطار العكسي وأعود إلى بيتي في صمت، أنتظر.. أنغمس في المكان.. أنصهر معهم، أمارس حياتي بشكل اعتيادي وطبيعي، على الرغم من المتغيرات الطارئة التي أسكنت بقلبي الذعر..
فشلت فكرة العودة، بإرادة حسن رامبو، والسوري.. سدوا علي سكة النزول، قالوا بصوت ضاعَت معالمه بين الركاب ولكني فهمته..



- أين ذاهب أنت ؟ أنت قادم معنا..

لم أبال - ذهبت معهم، نزلوا محطة مصر.. ركبوا عربة نصف أتوبيس، كانت لأحد سكان الحي.. توجهوا إلى طريق العامرية، ومنها إلى منطقة الحمام، ثم "مراقيا" أسماء لم أسمع عنها إلا في هذا الزمن الجديد..

توقعت قتلي .. إنهم ينوون - بالتأكيد - فعل هذا في الخلاء البعيد، أردت أن أسأل..
أتكلم.. لكن صمتهم المريب أسكتني..

توغلت السيارة في الرمال.. لم تشد انتباهي تلك المصانع والمزارع وأكواخ الصيف المترامية هناك..

توقفت السيارة وهبطوا منها.. تركوني وحدي، وتسلقوا مرتفعاً رملياً - غابوا خلفه لعدة دقائق.. ثم عادوا يحملون بعض أجهزة إلكترونية مغلقة بأقمشة وضعوها على المقاعد الفارغة في السيارة، التي انطلقت عائدة، ونظر السوري إلى وجهي وضحك.. كنت مندهشاً، قال:

- أتعرف هذا الذي جئنا به؟

قلت: إنني ما عدت أعرف شيئاً.

فضحك رامبو وقال:

- لأنك غبي.. نحن سرقنا الشركة الاستثمارية الآن تلك الشركة الموجودة وراء التل، وسوف نمر بهذه المسروقات من شوارع الإسكندرية، ولو عند أمك كلام فقله، نحن نسرق نهاراً وعيني عينك.

ابتلعت دهشتي..، لقد جاءوا بي فقط ليطلعوني على إحدى العمليات.. سكت وحمدت الله أنني نجوت من الموت في الخلاء.. ولأعترف، بحق، أنني خائب فعلاً، يتفاقم ذعري، ينمو، أنكمش لأصبح نملة، توجب عليهم سحقها.. سوف يفعلون عندما يتراءى لهم ذلك، ربما يتركونها الآن لتشعر بمدى ضآلة حجمها.. قالوا:

- تعرف يا خيبة أمك، لماذا نسرق؟

كنت أنظر إليهم بلا إجابة.

- نسرق من أجل تعديل الكون.. المزاج، أتعرف ما هو المزاج؟

- ها هو أنت موجود معنا، هل رأيتنا نسرق أملاك الدولة؟



وكانوا يضحكون .. وأنا أتضاعل، وكنا نخترق شارع أبو قير.. توقفت السيارة قبالة قسم شرطة الرمل.. نظروا إلى وجهي بسخرية ثم فتح رامبو الباب وزجني إلى الخارج وهو يقول:

- هيا .. افعل ما تريد.

ضحك السائق وقال:

- تحب ننتظرك..؟

تركوني فوق الرصيف أجتر تفاهتي، ودهشتي..

كيف يصدقون بأنني لست مرشداً؟

حسن رامبو. ذلك الصديق الأسود، متموج المزاج هادر الصوت، قصير القامة، سريع الحركة، دائم الجلوس على النواصي، يدخل السجائر المحشوة، يغني وينتظر نشوب معركة تخص الجيران ليدافع، ليخلع قميصه، يظهر عضلاته وأفضل من يشهر مطواه..

أيمكن أن يدفعني وهو العالم بأنني غير فاعل؟

أيقنت بأن رامبو، والسوري وغيرهم كثيرين، متخصصون في السرقات، لصوص اختصاصيون، وتابعون للأقطاب، مثلهم.. مثل فتحي..



(٦)

تحت إبط

كلما أبعدت فتحي عن ذهني، غاص في تلافي، كان يشاركني عشق "دودي" بشكل متعمد ومنفر، إنه أكثر إيجابية مني، فهو الشاب المتفرغ لها وللشارع المتسكع دومًا على أرصفة الحي، لا عمل.

يجب استبعاده فعلاً، حتى لا يشكل لذهني الممتلئ بكيان دلال أي عائق يبطل من سير أحلامي.. لكنني اكتشفت أنه متداخل في عائلتها على نحو يبعث على الاستغراب، إنه في الظاهر، الصديق الأوحده، المسيطر، ربما، على قلب يمتلكه، بإمكانه الدخول والخروج، واللهو مع صغارها كأنه هو الزوج.. لكن مراقبته لي قلبت برأسي كل الموازين، مما جعلني أرصد متعمداً.. أحسست بأن بينهما رغبة، متأججة، لم تخدم بعد، رغبة متأنية على الرغم من أنه متزوج حديثاً ويقطن بالبيت المقابل لبيتها.. يقول البعض إنه صديق طفولة لدودي، ويؤكد ذلك عم مرعي، والحاج السباعي، .. إلا أن ذلك لم يقبله عقل، إن خلجات وجهه المنفخ، بورم العنجهية، ترتجف كلما رآها.

إنه الظل الذي لا يفارق صاحبه، ظل اليمين والشمال والوراء والأمام، التابع الأمين، مفسح الطريق، الحارس الوجله.. إن كان الشارع واسعاً فهو على اليمين أو الشمال.

إن ذهبت لسوق باكوس فهو في الوراء.. إن دعيت لأحد أفراح الحي فهو في الأمام.. يصد كل العيون التي تشاهد جسدها المتنتهي ولا تجفل.. يمشي ببطء، واضعاً يديه في جيب بنطلونه الوحيد، يتابع خطوها الوثيد.. إنه المخبر السري الخاص، الجاسوس المتخفي في كل ألوان الطيف.. إن كان مقبلاً، أو مدبراً، توقعت ظهور دلال.. كان مبعوثاً من قوة عليا لا يدركها العقل الغافل.. ربما قوة الحب، أو قوة الثقة بأن أجمل نساء الحي تعشقه.. لكن كل ذلك لم يكن يدفع إلى الذهن باليقين.. كيف تعشق رجلاً أجوف؟ يتعالى كالملك المخلوع الناقم، أو التاجر المفلس، أو الشاب المظلوم من قبل المجتمع الظالم؟ الشاب الذي ضحك عليه الزمن، بعد أن منحه عمراً.. ثم قذفه إلى ذلك الركن القصي على شمال الدنيا؟ كان لا بد - كما كان يعتقد - أن يكون في مكان ما من العالم البعيد.. أمريكا، أو فرنسا، أو على الأقل دولة عربية! وهو الجاهل بأسماء حروف اسمه!!

هناك قوة أخرى تسيطر، قوة أكبر، ليست كقوة الأعوان أو الصبيان، بل قوة الأقطاب.. قوة جعلتني ألوذ ببيتي، يغلفني صمت رهيب، أكتب وأشعر بأن كل أقسام البوليس،



مجرد علب من كارتون مسكونة بالفئران والصراصير والأفاعي، يمكن سحقها بأقدام أعوان الأقطاب.

أصبح كل شيء واضحاً الآن، وضوحاً يصادر دماغي يقهرني.. يشعري بأن دلال تطعني - تطعني. وتضحك مني..



(٧)

بوابة للقهر

مرارة الملح بحلقي.. بصقت على الأرض ملحي،.. الآن أستطيع ربط الأحداث..
تدوين المخاوف.. العلاقات الآثمة، المروعة..

أيمكن أن تكون على هذا الانحطاط؟ وهذه المنطقة على هذه القزارة؟.. أغلقت علي بابي.. حاولت أن أغفو، أنام، غير مبال لذلك الملعون الذي تسلل إلى غرفتي للمرة الثانية،..
أوراق مبعثرة على المائدة.. شيء يدفعني لبيتي القديم.. لكن الغيظ يثبيني يقعدني..
الغيظ والقهر يبقيني، يوقظني، يؤرقني، يؤرقني.. جمعت أوراق، فكرت في حرقها.. دليل إدانتي.. دودي، تخايلني.. تتأرجح بين محاولات استبعادها عني والبقاء..

حرام تضيعين بين قهر الشبق واقتدار اللصوص.. بين الغرقى في الوحل، لأنك لا تملكين جرأة القول وحقيقة مشاعري، فض أسرارهم.. أوقفوني في الشوارع.. لأنك لا تملكين فوهة النار بجسدك الفاتن المستباح ولا تحرقينهم، ولا تعرفين معنى العشق.. ترصدوا خطوي في الأزقة.. غلقوا دوني كل أبواب العشق والهروب - باب العودة لبيتي القديم، وضعوا بسكك سيرى السكاكين والعيون، لأنني أحبك، منعوني من النظر إليك.. الهرب منك ينجيني.. ما جدوى أن أهرب؟ الهرب منك إليك يؤرجحني.. يستلذون هم بوهج نارك، يستحلبون تواجدك بين الغرقى في الشوارع.. يسدون فوهتك بالمال وبما تبقى لديهم من نخاع صدى.. أنت لا تجربين على البوح بما تعرفين.. ها هي أنت والشوارع الغرقى بهم.. ينهشون لحملك بلا رادع.. وراذك البحر ينتظر منهم النقود، الخروج.. لا فائدة ترجى من دلال.

وعلي أن ألعن نفسي التي هيأت لي حباً جميلاً، طاهراً، لم أكن أحب أن ألوثه.. لو سنحت لي فرصة التلوث..

لا فائدة.. لن تجدي الكتابة.. سأعترف لها ولهم بأنني تافه.. سوف أعطيهم أوراقى فليقرءوها لو كانوا يعرفون القراءة.

ما الفائدة الآن؟ كل شيء قد انجلى عني، وعندهم.. لا بد أن أنهى ما بدأت، فلن ينقذني منهم شيء.. تناولت قلبي علي أن أشطب دلال من رأسي.. لكنها تخايلني - استلقيت على فراشي.. وضعت رأسي فوق المخدة.. ثمة أوراق عليها أوراق مبعثرة وغير مرقمة ومكتوبة بخط رديء.



(٨)

التصالح

نحن هنا .. حولك، أمامك، خلفك، تحتك، فوقك، داخلك، لا فائدة، لقد تعرفنا على أصلك القذر .. أنت عدو لنا .. نحن مواطنون صالحون، تصالحنا مع الوطن، نحن الموسرون، الملتحون، التائبون، العائدون .. لن نجعلك تعيد لنا الماضي البعيد، ذلك الميت المدفون .. لو أحببت نبش القبور، فنحن أولى الناس بفعل ذلك .. نحن لا نحب وجع الدماغ .. لقد قبلت توبتنا منذ عشرة أعوام - توبة نصوح - منذ أغلقت أبواب البلد، لم نعد نرتكب أخطاء .. آخرون هم الذين يرتكبون الأخطاء .. يرتكبونها بعيداً عن بلدك .. بعيداً عن ذقنك .. يا عدو الله ..

- استغربت .. لم أكن يوماً بعدو الله ..

كتبوا يقولون - وهذا المكتوب لم أكن أعلم عنه شيئاً، فأنا لم أزر يوماً قبر الرسول ..

* * *



(٩)

مواسم الفلوس

الآخرون يذهبون بملابس الإحرام.. يلتقون حول الكعبة.. نصف عرايا.. أجسامهم متوحدة الزي، تتواثب ببطء شديد، كالطيور تتشد الارتفاع فوق مستوى الأرض.. يطوفون بابتهاال وخشوع، رافعي الأذرع والأدمغة، تشرئب بأعين ملؤها الرجاء، التوسل، تمسح رداء الكعبة الموشى بالديباج والقصب، تتهدج أصواتهم المحشجة المرجوة.. (لبيك اللهم لبيك).. كانت هذه أول مراحل الطواف السبعة..

(لبيك اللهم لبيك).. الزحام على أشده.. كأنهم يقضون أيامهم الأخيرة، (لبيك اللهم لبيك).. كان وجه علي الإنجليزي المضروب بوهج الشمس والبحر، يلوح بين الجموع الغفيرة، بملابسه الإحرامية، مثلهم، يتهدج صوته الجهور.. بالدعاء.. يثب بقدميه المدربتين جيداً.. يرتفع كعبه الأيسر، ويدفع بمشط الأيمن، ويبدلهما بارتفاع جسمه، كأنه يمارس العملية كثيراً، فكان يؤديها على أكمل وجه طائفاً .. معلماً بعض الحجاج القريبين منه أن يفعلوا مثلاً يفعل.. أن يتحركوا مثله، حتى يقبل الله !! كان يخرجهم من نشوة الخشوع الغامرة، ممسكاً بحزام أحدهم الملفوف حول وسطه، وعلى الممسوك أن ينتبه ويصلح من وضع قدميه على الأرض هكذا.. ويمثل لهم أثناء طوافه البطيء، ويمضي الآخر موافقاً وسعيداً، شاكراً، ليدخل في نشوة الخشوع والتعبد، ويغيب في وجد اللقاء، في حين يتسلل علي بين الأبدان ليواري شيئاً في جيب حزام وسطه العريض، المصنوع خصيصاً لاحتواء أكبر قدر ممكن من أشياء الطائفين، .. وفي الدورة الثانية، عند منحى الحجر الأسود.. يدفع ببذنه الضخم أبدان المتزاحمين، يدخل يديه المتحركتين بخفة إلى ثوب فضفاض لامرأة يعرفها، زوجته، وكأنهما يتلاقيان مصادفة، ولا يعرف أحدهما الآخر.. يضع بفتحة على جانب الثوب فتحة خصصت أيضاً لذلك، كل مسروقاته وتكون هي قد لامست الحجر قبلته.. ويعود هو للطواف بخفته، تواتبه، ناظرًا بعيني صقر، متطرفة، في الوجوه المجاورة الشغوفة اللاهثة تلهج بالسؤال، وجوه غالباً ما يكون الزمن قد هد منها القوة، وجوه شكلت قسماتها ذنوب قديمة، فراحت تزرع الدمع. لعل الدموع تغسل القلوب.. يعرف هو كيف يجاورها أثناء الطواف.. يعثر عليها.. أبدان لم تحتل بعد، تكلمة الطواف، .. الدورة الرابعة.. كان هو يدركها في لحظة السقوط على الأرض.. بين الزحام.. بين الطواف والتساقط يرصد الفريسة، يتساقط بدوره، كخفاش أعمى بليل أسود، يصطدم بالفريسة، في البدء يحمله.. يساعده على الوقوف، الإفاقة.. وحين توشك الفريسة على النهوض، يكون علي قد نال ما سعى إليه.. ويطوف، في الطواف



رحمة يا سيد العجر .. ترحم نفسك والآخرين .. تسلبهم ما جاءوا به لتوزيعه صدقة ومصروفات.

في الطواف نعم .. نعم أسبغها عليك الأغنياء الذين جاءوا يغسلون ذنوبهم، يريدون التوبة بنقودهم، نقود يعلم الله من أين حصلوا عليها..
وأنت يا سيد العجر .. تزاول عملك .. يغسلون ذنوبهم بالمال، وأنت خال من المال..
المال للغني نقمة للفقير نعمة، إن لم يعطها لك يسراً، أخذتها أنت عسراً.. قسراً.. يوم مولدك يا نبي .. يوم مولد لنا ..

يوم مولدك يا نبي الله.. نأتي إليك سعيًا.. يا ناصر المظلومين، يا رفيق المحتاجين، نسأل العون في رحابك، فأطلب المغفرة يوم لقائك بالعلي القدير، نحن الفقراء إليك.. نأخذ من ضيوفك الميسورين، الآتين من كل بقاع الأرض لينثروا أموالهم في السراء والضراء.. نحن لا نعلم من أين يأتون بهذه الأموال.. أنت أعلم يا رب.. نأخذها لكي نقيم لفقراء بلادنا بيوتًا، ومصانع، وجوامع، فقد أصابنا الفقر بعد أن غلقوا دوننا أبواب العالم – باعدوا بيننا والصحاب القائمين في بلاد الأجانب..

نحن هنا يا حبيبي للتزود بالمال.. هذه هي غايتنا، مبتغانا، لبيك اللهم ويطوف، يطوف..

في الدورة السابعة، قرب نهاية الطواف، تبدأ عملية التساقط.. تزداد بكثرة، تشكل حول الكعبة دائرة هائلة من الحشود المشاهدة، الواقفة، الجالسة.. تتساقط الأبدان المنهكة..

هنا، ينهض أحد رفقاء علي الإنجليزي، يأتي من بين الحشود بجسده الفارع النحيل، يصرخ، نقودي.. نقودي.. لقد سرقت.. سرقت، يتواثب جسده في هلع وهو يبكي..

كانت دموعه تتساقط كقطرات من مياه ساخنة، ملتهبة، تتقاطر فوق قلوب الحجاج.. ينهض علي الإنجليزي من مكانه القصي، يفرد "شالاً" بينما ينهض آخرون من أمكنة متفرقة.. يفردون الشيلان، يجوبون، يجمعون صدقات الحجاج للصارخ المسكين، الباكي المسروق.. تمتد أيدي الناس بكل الحب والأسى، تودع الشيلان نقوداً.. عشرات من الأوراق الملونة، التي تعبر عن مدى إيمان ومحبة مقدمها.. ألوان من النقد العربي والأجنبي.. عليها صور الأمراء والملوك، ورؤساء الدول الكبرى..

ثم يكورون الشيلان، في حين تساقط الصارخ الباكي مغشياً عليه.. يقترب حاملو الشيلان .. يشرعون في حمل المغشي عليه.. يتجهون به إلى خارج الحرم، مدهوشاً كنت.. أوصل القراءة وقد أحسست بالغضب، المنبث، المتوعد، يطالعني من خلال الأوراق.



أسمع يا أخ، نحن لا نود وجع الدماغ، خاصة في هذا الوقت من الزمان الجميل.. أنت ميت.. ميت.. لأننا لا نود تعكير صفو هذا الزمان الجميل،.. إن كل شيء يبدو لي جميلاً.. أفاهم أنت؟؟

نحن شاهدنا من عصر الثورة حتى الآن، أحداثاً جمة. أحداثاً عظيمة. يمكن للمرء أن يصبح حكاًء لو سمح الوقت أو رتب تلك الأحداث، لكنه للأسف الخالص، لن يصبح غنياً، ثرياً، يمتلك أرضاً.. والأرض في رأيي الشخصي، ليست هي الأفيان، زرعاً، لكن الأرض، أن تمتلك مدينة بأكملها.. شوارعها، ناسها، تملك طبائعهم، أخلاقهم، حكومتها، أن تصبح حاكماً، صاحب قوة، سلطة،.. والسلطة لا تأتي جزافاً، بل تشتري تأتي بالفلوس.. أتعرف ماذا تعني الفلوس؟؟ الفلوس أيضاً، لا تأتي هكذا جذاًفاً.. الفلوس لا تمنح، لا تسعى إليك، بل تأتي بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، عليك أن تفعل كل الأفعال الأخرى، الأفعال الصعبة التي لن تخطر على بالك.

نحن أبناء الثورة.. ولدنا على كف الثورة، لنجد أبانا، الذي في نعيم الجنة الآن، يمتلك أرضاً، هذه الأرض التي تود تدميرها الآن..

كان لنا في النكسة نصيب السبع، نصيب الأسد، لنا باع في المهارات العمالية والقيادات الطلابية.. كل انتفاضات الشعب كانت لنا..

نحن القيادات الأولى، لأية حركة تعبر عن رأي الشعب، أية مسيرة للشباب، في الأصل، نحن مشعلوها..

إضرابات الشركات، المصانع، نحن فاعلوها، أو نحن بمعنى أدق، أصحاب النار، اليد المدمرة الخفية.

كل المظاهرات التي حدثت بعد النكبة، نحن الذين نضع لها الهشيم ثم نوقده، نشعله،.. ثم نطلب الحكومة للتفرقة.. لإخماد النار، لإطلاق الرصاص،.. هم يطالبون بالحرب.. ونحن نفتحم الأبواب، كيف؟ ذلك هو عملنا.. هم يطالبون بخفض ثمن الرغيف، ونحن ندنو من ممالك الأكابر،..

نحن الآن، تصالحنا مع المجتمع، ولا نود أن نخاصمه، نحن نقيم معه الآن، علاقات الود حتى نـمحو كل ما حدث بالأمس، من تاريخ حياتنا، نحاول التقرب إلى الله، فهو الوحيد المصلح، ليس أنت. ولا مليون تافه مثلك.. في حرب الاستنزاف. كان لنا هناك يد، في الجيش الثاني، والثالث، رجال يعرفون كيف يستفيدون من التواجد بين الأنقاض.. وذلك ليس سرّاً أذيعه عليك.. فالكثيرون من أثرياء البلد، عرفوا كيف يثرون من الحروب لعلك تعرف منطقة بور توفيق.. شاطئ السويس الغني، ملتقى العائلات، شاطئنا كان لممارسة الحياة السهلة..



تعبّر إليه خلال لسان أرضي يبدأ من عند السويس، وهو الشاطئ، معمور بكل شيء جميل لخدمة الناس الجميلة، المكاتب، البيوت، الشاليهات، كل شيء كان جميلاً، كان قريباً، ومتاحاً، قريباً جداً من خط بارليف، ذلك كان مهدماً ومهجوراً من أهله، إلا من بعض الجنود الذين يفعلون الأفعال الصعبة، بمعرفة بعض أصحاب النجوم الصعبة.. كانوا يسربون بعض المعدات المفيدة والمثمّنة.. في حرب ٧٣.. لم يكن هناك شيء صعب.. زمن سهل.. كل شيء كان متاحاً ولا يحتاج لصعوبة.. كيف نخاف ولدينا، نحن أصحاب الأرض قائد أباّح لنا كل شيء؟

قال لنا افعلوا كل الأفعال الجميلة وغير الجميلة.. ولكن جددوا مدينتكم.. نود لو نكون أفضل من أوروبا، أحسن من أمريكا.. فتح لنا أبواب لم نكن نعرفها، أن ننقل أعمالنا للبلاد الأخرى.. فما أجمل أن تستبيح أرض الأغراب..

كانت لنا الصولة الأولى، حين بدأ هو الجولة الأولى، المبادرة الأولى، أعطانا كامل الحرية لفعل الأفعال الشرسة لنثرى، نعلو، نعلو، لنكون نحن.. نحن، ... نحن. نحيت الأوراق جانباً..

كان مرسلها يطل علي من وراء مركز قو .. قوي ..

قوة كبلتني.. ضآلتني.. حجتني.. حددت مكآنتي بين جدران غرفتي.. قعدت..



(١٠)

الوشاة

لم أغادر غرفتي ..

تواترت في الحي بعض الأقاويل المريبة ..

تفيد بأن رجالاً من قبل الحكومة، تمشط البيوت بحثاً.. استغربت.. فقد اعتدت على رؤياهم يقومون بتفتيش رواد المقاهي المشبوهة، يفتشون الباعة، والحمير، والأحصنة.. وفي أحيان كثيرة يضربون الممتنع من أصحاب البهائم المفلسين، ويأخذون البهائم، تاركين أصحابها منهوكي القوى، يصرخون باكين.

أوعزت ذلك لنشاط الحكومة المكثف في البحث عن باعة المخدرات.. ارتعبت، ولاحظت أن جيراني الأقطاب لا يبالون بما يحدث.. وحين علمت بأن الرجال القادمين المفتشين، يصعدون بيوت غير مسكونة، وأخرى مأهولة بأهلها الذين يعاقرون الخمر والمخدرات بشكل فاضح، فيمكن للمرء أن يلحظ كل أفعالهم دونما خشية، فهم لا يخشون أحداً، فقد أوحى لي وجوههم الواثقة، بأن ما يحدث هو مجرد إجراء لإعلامي، بأن الأقطاب يملكون كل شيء، ويفعلوا ما يروق لهم .. في الليل .. دقوا بابي..

رجال يشبهون الخنازير المستوحشة.. دقوه بقبضات حديدية، اهتزت لها الجدران وركن الأواني ورف الكتب.. ارتجفت..

وتذكرت على الفور رواية الأم.. والرجال الدركيون يقتحمون بيتها، يفتشونه، يمزقون أشياءه بحثاً عن منشورات.. فأحسست بشيء من بطولة زائفة، لا تجدي في هذا العصر المسيطر عليه الأقطاب..

صرعوا الباب وأقبلوا مسرعين.. يحدقون بوجهي المرتعب، المصمت، المستغرب.. بدعوا يجولون في الأركان، اعتقدت، في البداية، بأنهم من رجال المخابرات السياسية، لكن هؤلاء ملحمون بالسمنة لحد النفور والمقت.. لم يقبلوا شيئاً.. لم يفعلوا مثلاً فعل الدركيون.. فتشوا بجهل يبعث على الضحك، يفتشون فقط لإرهابي. وإشعاري بأن بإمكانهم فعل كل شيء دونما رادع.

تناول أحدهم أحد الكتب.. نظر فيه طويلاً، كأنه يفك أحد طلاس الحروف. داخلني اطمئنان. كان يمسك الكتاب بالمقلوب.. ضحكت في سري، إنهم مخبرون مخزرون، ممن نراهم في الطرق العامة، والأسواق، المتطوعون في الأقسام لخدمة الشعب.



التقطوا من على المائدة رزمة الأوراق المرسلة لي. نظروا فيها بامتعاض. مفتعل.. ثم تركوها لأحدهم، واتجهوا شطر الفراش، رفعوا المرتبة.. ثم اتجهوا صوب الأواني. رفع أحدهم غطاءها، نظر فيها وامتعض. كانوا يمتعضون بسرعة..

راح أحدهم يبحث فيما بين الكتب.. امتعضوا بشكل جماعي.. وتوقفوا.. سألني أحدهم، أنت شيعي؟

ضحكت .. أهذا آخر ما فكروا به؟ قلت..

-ماذا تقصد؟

وتوقعت أن يرفعوا أيديهم ويكيلون لي الصفع.. لو رفضت الكلام، ولن يخلو وجهي من بصقاتهم، فتحفزت نفسي استعدادًا لذلك، تصالبت أعصابي.. كانوا يتحركون ليعيدوا النظر في الأشياء..

ها هم الأقطاب يمارسون عليّ طغياناً جديداً، يرغمونني على اليأس الكامل من مجرد التفكير في مواصلة حياتي، فلا نجاة.. بعد.. من أي شيء.. أرغموننا على مقت الباغي الطاعي، وكنا مكتوفي الأيدي.. أرغموننا على كرههم ونبذهم بتفشي الغلاء الفاحش وطرح المواد الفاسدة، تلك الغالية، غير المستباحة لأمثالنا..

أعادوا بناء الإنسان الثري جداً والمعدم، وأباحوا على الأرض ممارسة الفساد، حتى انبجعت بالمقت، .. أوقدوا مراجل الغضب والغليان، وإذا طفحت الصدور بالكلام، جاءوا هم، أنفسهم الذين أوقدوا النار، ليخمدوا النار بالرصاص، بالنفي والاعتقال، إصاق التهم والعقوبة، وها هم الأقطاب يتواطئون مع الخنازير، يقولون، أنت شيعي..

تذكرت تحت أبط، سد خانة، رامبوا، السوري.. الحلقة السفلى المغروسة، لم تنزل في الطين، تنتظر الصعود، الثراء.

قال أحد الرجال: يقولون إنك شيعي..؟

استشعرت بعض الهدوء، قلت:

-وماذا لو كنت؟ هناك الكثيرون منهم، البلد ملأنة بهم، هل كلهم تفتش بيوتهم؟

لم يجب أحد.. يولونني أقفيتهم الغليظة..

كانوا ينسلون إلى الخارج ويتلاشون.

إلا أنني كنت أحسهم متناثرين حول الغرفة.. ظللت أحسهم بالأركان..



(١١)

الموت

توجب عليّ فعل شيء، أي شيء يوازن نفسي الغارقة في اليأس والقتامة..

نفسى المتفوقة على نفسها في ضحالة الانتظار للموت..

الموت البعيد القادم بتمهل، يتبختر، يحاصرني، يسد عليّ منافذ الهرب. يغلفني بنوع من شجاعة زائفة، مستمدة من خوف كامن، متربص. لكنها شجاعة على أية حال.

للأقطاب أذرع أخطبوطية ممتدة على رعوس المدينة، هناك، حتمًا، أقطاب آخرون، يساندون هؤلاء، يعيشون وراء المقاعد المهمة، يتربعون، بحق، على عروش الوطن، - الوطن المجهد - أمتعض.. أمتعض.

إنه الزمن المتعفن، ذلك الذي أباح الثراء، فجاست رعوس الغجر في رعوس الأعراب، القائمين في براميل الزفت والقطران، تبادلو الرعوس، الأماكن، منحوا الأعراب رعوس الغجر وأخذوا النفط، سرقوا وجاءوا، وجاءوا وسرقوا.

وسرقوا - وحين انكشف أمرهم المشين في بلاد العرب، استردوا رعوسهم، وباعوها لبلاد تصنع المخدر الأبيض، وفعلوا كل الأشياء - إن لم تلص في عهد الانفتاح، فأنت جائع أو عبيط.

خطر بذهني ذلك الزوج الحاضر الغائب، سد خانة.. كيف تسنى له الصمت؟ السكوت على جسد دودي، المنتهك من قبل الأقطاب؟ كيف سولت له نفسه قبول ذلك؟

يقول البعض إنه قد لص، سرق، في الزمان القريب، أحد مستخدميه الأجانب. ثم قبض عليه، ثم نزع من شارع فؤاد، إلى هنا، وتزوج دلال.. كان قد خبأ مسروقاته في مكان ما حتى يخرج من حبسه.. النقود هي حصنه الآمن من عذاب الحبس، ففي الحبس تكون ملكًا لو امتلكت نقودًا، في المدينة تصبح مرتاحًا لو ملكت نقودًا.. في الأرض جميعًا تشعر بقواك..

لكن سد خانة لم يخرج من الحبس صحيحًا، لقد أمت الحبس به رغبة النساء، أصابه الارتخاء.. شرب الخمر والمخدر ليدعم الرغبة الراكدة، لكن سدى، الرغبة أيضًا تتخدر، تنام.. يعارك نفسه.. يستهزئها، تأبى القيام.. يفقد الأمل في مزاولة الرجولة.. يجد في مجالسة الأقران، القاعدين بلا هوية، الرجولة.. يلتفون حوله، يستحلبونه، ويضحكون، ويشعرونه بأنه أفضل الرجال.. رجولة يفقدها، أيضًا، حين يلف الليل البيت وامراته، يحاول



الدخول .. حرث الأرض.. عودة الطفل إلى الرحم.. شبق الرحم المنتظر الطفل العائد. لكن الطفل يعود محملاً بالفشل.. بالصراخ المكتوم.. تزيحه هي.

- لقد أتعبت أعصابي.. أثرتي بلا فائدة، قتلوا في الحبس رجولتك، بضاعتك.. أنت الآن بلا بضاعة.

سد خانة، هذا اسمك، أطلقه عليك الصحاب حين وجدوك تعشق النقود، تلك تعوض الرجولة فيك.. تعشق البقاء فيما وراء الجدران لتكون بعيداً عن امرأتك التي تسخر منك، من طول قامتك، وعلو صوتك، جهامتك وزيف أفعالك.. لتكون هناك محبوس في وقت حاجة أطفالك إليك لوجودك كأب.. أحقاً أنت أبوهم؟ ما أدراك؟ أنك تشك في ذلك، ولذلك، قبلت أن تكون سد خانة، لأي قطب يتعرض للحبس، تاركاً له مهمة رعاية بيتك..

أنت تعرف أن أرضك تحرث دونك.. وتتعمى، وتوعز ذلك لبيئة المرأة الخائنة اللعوب، التي لم تصطبر حتى تخرج.. وها هو أنت خارج القضبان وخارج بيتك، ماذا فعلت؟ رأيت أن أثير سد خانة من هذه الزاوية، بإمكانني تمرده، تحريضه، هذا أولاً.. ارتحت قليلاً لهذه الفكرة.. بإمكان سد خانة إثارة بعض أقرانه..

كان فتحي، تحت أبط، يخالني على الرغم من كراهيتي الشديدة لتطفله على أفعالي وترصده لتحركاتي وكأن كل حركة أفعليها ما هي إلا موعد مع دلال.. نعم فتحي.. جُند ليكون رقيباً على دلال.. معلقاً دائماً تحت أبطها، أينما حلت يكون، يحل، يكاد يذوب في خيالها عشقاً.. ها هو يمضي النهارات، محبباً، مكباً، هائماً، تشحن رغباته المؤجلة بنظراتها المستهزئة، حيناً والعطوفة حيناً.. يفح كالخيول المجهدة بآخر الليل.. ينتظر أن تدعوه من فوق الرصيف، أسفل الشباك، ليدخل في غيبة سد خانة، ليمارس حقاً حسبه له.. لكنه يظل قاعداً.. بينما يدخل أحد الأقطاب ويغيب.. ثم يخرج، .. في حين يكون "تحت باط" قد هدده اليأس والوجد، وينتظر أن تدعوه في الغد.. لكن في الغد يتبدل القطب.. يقصم تحت أبط أظفاره.. لقد آن له أن يمنع الداخلين ليلاً، إلى بيت صديقه الأوحده.. هذه زوجته وأطفاله الصغار، وهذا البيت بيته..

على تحت أبط أن يفكر بحاله، بنفسه، فقد أصبح له قرنان.. قواداً.. قرنان معلقان بالداخل.. غداً.. أو بعد غد يظهران على جانبي الرأس، فما قولك؟ ما مصيرك؟

المليك أنت.. أنت المليك، والمليك؟ أنت الشاب المتيم بحب جارتك؟ لقد توجب عليك أن ترعاها من شرور الآخرين، لا أن تعشقها، تحرس عشاقها.. لم لا تتمرد؟

خطر بذهني حسن رامبو.. لص اللصوص المفتخر، المتعالي، خالع قميصه، شاهر مطواته التي لم يلوثها بنقطة دم، على الرغم من المعارك الصوتية الفارغة التي يخوضها،



وأعداد الرجال ذوي السيوف والخناجر، والخناجر حتى يخيّل للمرء أن الدم هنا سوف يغمر الشارع ومداخل البيوت.. رامبو، ذلك النقاش الماهر.. تارك صنّعه، وسوقها الرائج، ليقّعد الرصيف.. يلتقط من الريح رزقه، والصحراء، ومن صدقات الأقطاب، فالنقود التي تذل الفرد لا تسمى نقوداً، بل مذلة، أداة لتفريط الكرامة، إهدار الإنسانية، يجب أن يثرى الفرد بلا تعب. فإذا ضاعت بلا تعب، فلا حزن ولا غضب.. فنحن لا نحب الغضب.. هذا فكر رامبو، عاشق مجالس سلسلة الأقطاب الوسطى..

يمكن لرامبو أن يعود لنقش جدران المباني، ليصبح مقاولاً.. العمل يمنح الإنسان طاقة تساعد على التمسك بكرامته..

فتاتك الحلوة، محبوبتك الصغيرة، تهواك.. لكنها تبصر كدائم القعود مثلها. هي خلف الشباك وأنت فوق الرصيف.. هن لا يحبين الكسالى، القاعدين. لا يأتون بالنقود.. ماذا تعمل؟ يقولون عنك، إنك تسرق أو تبيع الصنف، وتتعاطى حقن الماكس، وأنت الشاب الوفي، اليافع.. الحب هو معيار الإنسان، يُقاس الإنسان بتجاربه الأخلاقية.. فلم أنت ساكت؟ الساكت عن الحق شيطان أخرس..

افعل شيئاً، ارفع في الوجوه صوتك، وجوه الأقطاب، أسيادك. هؤلاء هم نتاج العهد البائد، تمرد أنت.. تمرد..

وتذكرت السوري، السوري.. سوف أذهب إليه.. إنه ليس باللص الجبان، لم يسرق يوماً جيرانه، هو محب لهم.. يطامنهم دائماً بأفروله المشحم الذي يوحي لهم بأنه ميكانيكي، وليس لصاً.

ما بالك لو قبض عليك؟ لو أودعوك السجن؟ ما هو موقفك؟ أنت الفارع الطول القوي؟ أنت الفرع المائل من عائلة الهلباوي، الفرع المسكين، سارق الغسيل والدجاج، ثم سارق الدكاكين، لم يأتعنوك ويأخذوك معهم إلى الحج، لثرى، أو مكامن المخدرات لتسمو قليلاً، بل تركوك، فتطورت سرقاتك لتشمل الخزائن.. وحين تدهورت الأحوال عدت مرغماً لسرقة الغسيل والدجاج، وابتلاع "البرشام" الرخيص، من ذلك العمل العفن، عدت للعمل العفن..

أبوجد من هو مثلك؟ عطوفاً.. ويعمل لصاً؟ يسرق الغسيل.. نفترض أن أصحابه فقراء مثلك. عرايا أطفال، نساء؟ ما بالك لو جدت في مسروقاتك ثياب حريمي؟ وأنت تمقت صنف الحريم، لما فعلته معك امرأتك الملعونة المطلقة لخيانتها مع الولد القزم الكوافير؟ لقد تركتك لأنك "حرامي" ولأن القزم كوافير..



أوضاع بغیضة تجري على أرض الغولي.. ذوك الأقطاب يمارسون الفسق والخيانة
مع امرأة صبيهم السفیه سد خانة..

كان جمعهم، كالمعتاد فوق الرصف..

كنت أدنو منهم بحذر.. قلت وكأنني قد حدثتهم بكل ما دار بخلدي..

- يجب أن تفعلوا شيئاً.

يتساءلون في خبث:

- نفعل شيئاً؟

- تمردوا على هذه الأوضاع ..

قالوا في ضجر واضح غير فاهمين:

- نحن لا نفهم شيئاً مما تقول..

- نحن ولدنا هنا، تربينا هنا.

- سعدنا لنجد هؤلاء حولنا.

- نحن لا نفهم شيئاً مما تقول.

- هم أولياء نعمتنا..

قلت.. وكنت أدرك أنني أهتم أكثر بدلال

- وهل دلال كانت هكذا . مثلكم؟

قال تحت أبط بين استغراب الآخرين:

- نعرف قصدك تماماً..

قال آخر:

- بل كانت أفضل..

- سد خانة هو السبب.

- بل أبوها.

- أمها.. ألم تكن تخدم الفولي في أيامه الأخيرة؟

- لا .. لقد فتحها سد خانة.. كان يأتيها كالثور، ثم دخل السجن.

- عندما خرج ، أراد إغلاق أبوابها، إلا أنها أبت، فلم يستطع كبح جماحها..

- لقد انفتحت كالبوابة الكبيرة..



- كالمبولة العامة.
- قلت مقاطعًا، مداعبًا:
- ولماذا لم تغلقوا أنتم هذه المبال؟
- ضحكوا لمداعبتي باستهزاء .. قالوا:
- وأين يتبول البعض؟
- تزوجوا..
- أين المساكن؟
- صمتوا قليلًا، أحسست بأنني أضرب على وتر حساس، قالوا في سهوم:
- لكنهم أقوياء. بيوتهم عالية.
- أنتم أكثر منهم قوة..
- نحن نريد فقط، بعض الذي أخذوه.
- نريد أن نكون مثلهم.
- مثلهم؟!!
- ولم لا .
- حرام؟
- الدنيا هذه لمن استطاع..
- هم نالوا ما أرادوا نيلاً، وأنتم كما أنتم..
- سوف نأخذ ..
- نعم سوف نأخذ ..
- حين يعود الزمن ويعطينا وجهه.
- كانوا يحلقون بدني وهم يصبغون وجوههم بالدهشة.. يصغون إلي باهتمام شديد..
- اهتمام تدفق بغتة بأدمغتهم، أحسوا بأنهم كانوا نيامًا، وبأنهم أمضوا أعمارهم عميانًا، مساطيل،
- لم يع أحدهم لنفسه يومًا.. لم يفكر بأنه إنسان له كيان خاص، مستقل..
- ثم تجهموا فجأة، استشعروا المهانة.. أدركوا، بأنهم ما كانوا إلا بغالًا تساق في حظائر
- الأقطاب.. صبيان ضعفاء.. دمي بأصابع الأقوياء.. اغتاظوا لحد البغض مني، كأنني أعيد
- إليهم كيانًا كان مفقودًا.. مطموسًا بالقيعان.. أذكرهم بأنهم مجرد ظلال، خيالات باهتة،
- فراغات، سد خائفة، تحت إبط.. متعبون بزمن الانسحاق، قالوا بغضب مستفز:



- كنت تعرف أننا نعرف ذلك..

- أنت تريد أن تصبح بطلاً..

- ونحن نريد أن نعيش يومنا.

- اذهب عنا، أنت غريب علينا.

قلت وأنا أصد مد الموج الهادر:

- أنتم الأقوياء.. حاربوهم، لكم الحق في مواجهتهم.

- نحن لا نريد منك نصائح.. نحن هكذا أفضل،

- أنت دخيل علينا..

ثم لفهم صمت غريب .. قلت:

- ما كنت يوماً دخيلاً عليكم، فقط أريد لكم الخير، كل الخير، إنني أدرك جيداً

مصيري. لقد حددته وانتهى الأمر، فقط أردت أن أصب فيكم أسباب غلياني،

فسوف أموت بهذا الغليان، وهم كما هم يظنون كما هم. يطلقون لحاهم على

الخدوش، على التجاعيد، هم اللصوص القدامى، هم المتخفون في حقائب السفر،

التائبون الآن، القابع بعضهم تحت قبة المسجد القريب، منبعجون، يتقيأون تاريخ

السلف الصالح، ويقولون إنهم سلفيون، متقون..

حراس أبواب الجمارك أصبحوا سلفيون؟

اندهشوا، وأقدامهم ترحف نحوي. وكنت أقول:

- سلبوا كل شيء وأقاموا العمارات. صاروا ملاكاً وارتاحوا وأنتم كما أنتم، ما

ارتحتم يوماً.

قالوا:

- نحن نرتاح لو خرس أنت.

تبادلوا النظرات.. بدوا كالمشدوهين.. توقفوا قليلاً، كأنهم يدبرون أمراً، ثم استداروا.

واتجهوا نحو الحقل.. فتحوا بابه وتواروا هناك.. حفروا تحت إحدى النخلات.. أخرجوا

صندوقاً صغيراً يحتوي على بعض الحقن.. شملوا الأذرع وبدعوا يحقنون بعضهم بعضاً.. ثم

عادوا أكثر ابتهاجاً سألوني، ماذا كنت تقول؟

ارتجفت، تخوفت.. فقد حقنوا أنفسهم لكي يتناسوا، أو يدافعوا عن أنفسهم ضد

الأقطاب، هادئين، يودون سماع ما قلته، ثانية.. لكن سدى - لا فائدة، لا فائدة..



ترنحوا وضحكوا.. ودخنوا السجائر، وكأنهم أشخاص آخرون، قساة، ملامحهم سريعة التغير، شرسة، تنذر بالخطر الداهم.. تراجعت قليلاً.. وكانوا يتقدمون.. ظللت أترجع حتى التصق ظهري بالحائط..

هذي هي النهاية المنتظرة، تقدموا.. أخرجوا السكاكين، قالوا:

- نحن لا نريد نصائحك. أنت لست أفضل منا، نحن أفضل منك.

- سوف نخلص عليك الآن..

- لقد عشنا عمرنا كله لا نشعر بالمهانة، في وجودك فقط شعرنا بالمهانة، أنت

كلب.. والذي بعثك فينا ابن ستين كلب..

لا أدري كيف توقفوا.. كيف كفوا عن الكلام، ونصائحهم المشهورة بوجهي.. أغوص في داخلي المنقبض.. أنتظر في أي موضع من جسدي، ستغرس؟ في عنقي، أم في كتفي.. ربما في سيقاني.. ولم لا تغرس في قلبي؟.. أم تراهم ينتون ذبحي؟

أغمضت عيني، أحسست بحلاوة أمنية العيش، أن أزال حياتي، أغمض عيني، ما زلت منتظراً، غرس السكاكين بقلبي. قالوا:

أنت لعبة أرسلها لنا البوليس..

تركزت كل حواسي على هذه الأجزاء المرتعبة المتوقع غرس النصال فيها بقوة..

بقوة.. بقوة..

* * *

لم أعرف كم مضى من الوقت، بعد أن تيقظت، لأجد نفسي مطروحاً على فراشي.. لحظات مبهرة، تلك التي أعقبت فقدان الواعي،.. لحظات لم أدر ماذا حدث خلالها.. آخر ما وقر بذهني، شكل الوجوه الغاضبة والنصال، ظهري الملتصق بالحائط.. كان بإمكانهم غرس النصال في تلك اللحظات غير الواعية بجسدي، وإنهاء الأمر.. لكنهم تركوني.. تركوني؟

هل تركوني حقاً؟ هل أنا الآن في القبر؟

أنني أشعر بقوة غريبة تكبلني كأنها الكفن..

في أي جزء من جسدي غرسوا نصائحهم؟



لم أر البحث في المنطقة التي يمكن أن تكون قد خدشت، فأنا حتى الآن لم أحس بأي وجع؛ لأنني لم أعد أحس، أصلاً بأجزاء جسمي.. أشعر فقط بدقات قلبي.. يدق.. ويدق.. وهذا الظلام الكثيف القابعة فيه عينايا.. أخاف الآن فتحهما..

سوف يطالعني بالتأكيد مناظر مخيفة، من تلك التي يتحدثون عنها عند نزول القبر.. ارتعدت، وتخيلت نفسي أتحرك، أدفع هذه القوة المكبلة.. أحرك ساقي.. خمشت بأذني بعض أوراق.. كانت عند ساقي، ثم تساقطت على الأرض.. وتنبهت بسرعة فائقة بأنني ما زلت على قيد الحياة، فغمرتني سعادة قاسية. أدهشتني.. لا يجب أن أموت.

ها هي حجرتي، مائدتي، كتبتي، بابي، سقفي المشقوق، لمبة النور، فراشي، وها هو أنا، راقد، أفكر، لا خدش، لا ندبة، لا شيء يدل على ارتكاب جريمة.

بل أحسست براحة غريبة تتتاب بدني، لم أعرف بعد كم من النهار قد مضى وأنا نائم، فاقد الوعي، ومن الذي صعد بي، وجاء بي إلى هنا وأنا نائم؟ .. بعد لحظة، قرع الباب.. فزعت ولم أرد.. لكن الباب دفع.. لم أدهش كثيراً لقدوم دودي.. جسدها المرغوب.. ووجهها الأبيض، .. كل شيء أصبح عادياً، وقابل للدهشة، لحد العادة.. أغلقت الباب، وكنت أتحدى بسكوتي.. حين تقدمت مني، جلست، وضعت على حافة فراشي صرة ملفوفة، تحتوي على خبز وجبن أبيض، وشرائح من لحم محمر وحفنة من مكرونة وقالت:

- صحت؟

قلت على الفور.

- أنت معهم؟

قالت وهي تفتح الصرة؟

- أنا معك أنت ..

مستغرباً، قلت:

- أنت مع من بالضبط..

انحنيت تجمع أوراق المبعثرة من فوق الأرض، اعتدلت وقالت:

- قلت لك معك أنت..

تخوفت من مكرها وقلت:

- كيف جئت ؟

- جئت إليك أنت..



- أنت مثلهم، تلعبين بي.
- كلهم كلاب.. خائفون..
- كيف تأخذين الكلاب في بيتك؟
- لم تأبه بسؤالي. قالت:
- كل..
- قلت وأنا أرفض لقيمة أرادت غرسها في حلقي المتكلم:
- أريد فقط أن أعرف - كيف تأخذينهم عندك؟ تعشقينهم جميعاً؟
- لا أعشق منهم أحداً.
- رأيت بعضهم عندك.
- رتبت محتويات الصرة وقالت:
- اسمع الكلام وكل..
- أبعدت يدها وقلت:
- أريد ..
- لا تخف. طعامي تتظفه يدي.. نظيف، ليس به سم.
- قضمت هي الطعام وقالت.
- إنهم يحاولون إمالة رأسي. لكنهم لن يستطيعوا أبداً.. لذلك هم يحاولون..
- أكلت من المكرونة وقالت:
- تعرف. لو منحتهم مرة جسمي. سوف يقتلونني.. أو يبعدون عني.. إنني أعذبهم بطريقتي، أعذب نساءهم المتكبرات، لصوص، ومتكبرات. لصوص مواصلات عامة.
- مددت يدي إلى الطعام، وقلت:
- أعرف أنهم يذهبون لسرقة الحجاج.
- أبداً.. لقد بدأ البوليس يضيق عليهم الخناق. لقد عاد أغلبهم، وهم اللصوص الغلابة، لسرقة الغسيل والمحافظ وخطف سلاسل الحريم في عز النهار.
- قلت وأنا أمضغ قطعة لحم.
- وأبوك؟ لماذا لم يفعل شيئاً؟
- أبي مريض منذ فترة، لم يعد يهبط الشارع.



تذكرت العجوز.. السباعي، إنه حقًا لم يظهر منذ أنهى على مسامعي قص الحكايات..
أردفت دلال تقول:

- أبي كان يعمل لديهم من زمان في أرضهم، ثم طلب أن يرتاح، فأراحوه ومنحوه
بيتًا، هذا البيت الذي نعيش فيه، وطلبوا منه ألا يغادره حتى يموت. ونحن طبعي لا نغادر
المكان..

- وزوجك؟

- سد خانة .. هذا العبيط الخرع؟

تحسرت في تهكم وقالت:

- ذلك المتعفن؟

- أليس زوجك؟

- كان ذلك بعد آخر طفل، لم يقربني بعدها، نعم. لم يقربني.. ولن يفعل، لقد ختمت
على نفسي ألا يقربني أحد.

- كيف؟

- كلهم يريدون وأنا لا أريد، كلهم أنذال، وأولهم سد خانة، فمنذ أحب جمع النقود،
وأدمن المخدرات، وأنا أمقته.. ابتلعت لقمة مغموسة بالجبن وقالت:

- وحياتك لو لم يسألني الأولاد عن أبيهم ذات يوم لقتلته.

وساد الصمت بيننا، ثم قالت:

- أنت صحيح مرشد؟

- أنا؟ إنهم يقولون ذلك.. أنا أنتظر قتلي..

ترقرقت دمعتان بعيني.. كانت يدها تداعب شعري، بحنو، قالت:

- كنت أعرف أنك لست مخبرًا. كما عرفت أنك حساس جدًا. كنتك الجماعة التي
تكتب الشعر.

قلت، وقد لمست فيها معرفة حقيقة لم يعرفها الآخرون بعد:

- الآن فقط. أتمنى لو أعيش.

قالت بثقة:

- سوف تعيش ولن يعترضك أحد.

تذكرت ليلة النصال، قلت:



- أحقاً ما تقولين؟
- صدقني.
- ثم حركت يدها علامة الثقة وقالت:
- أنا لا أكذب.. تعرف من الذي أنقذك أمس؟
- من؟
- أنا..
- كيف؟
- كنت بالنافذة عندما كانوا يقتربون منك.
- بالنصال.
- بالنصال والماكس والمخدرات.
- كانت ليلة سوداء.
- كان فتحي هو الوحيد الذي كان يريد قتلك.
- مخبرك الخاص؟
- تقصد كلبى الوليف؟
- داخلني شعور مبهج .. ابتسمت، قالت:
- لذلك، عندما دعوته أمس. جاء مسرعاً، إنه تحت إبطي أعرف كيف أسوسه، ثم أمرت سد خانه أن يفرقهم جميعاً، ويأتي بك حاملاً إياك، فتحي وحده، وكنيت معه..
- أنت تحبينه؟
- أنا لا أحب الكلاب، وهذا الحي ملآن بالكلاب.
- لكن يمكن لفتحي أن يشي بك عند الأقطاب.
- لن يستطيع، ولو فعل، سيحرم من مرافقة ظلي، أقول لهم إنه حاول تقبيلي، وهم يعلمون جيداً أنه يحبني.. بالرغم من ذلك لم أطمئن، لم أصدق، ما تقول.. كيف يمكنها حمايتي؟ وهم القادرون على قتلي وقتلها وقتل الجميع، قلت:
- الحياة فعلاً حلوة، ويجب أن تعاش.
- سوف تعيش، وسوف نقتلهم معاً أو نسجنهم معاً.
- أهذا معقول؟



تتأهي إلى سمعي دبيب أقدام.. تصعد الدرج.
ارتعشت، وثبت هي إلى السطح، لتتوارى به، وقد أيقنت أن قدومها إليّ لم يكن إلا
للإيقاع بي، وأن ما قالته كله كذب.
لكنني أدركت أيضاً بأنها تحبني بحق.
فشعرت بالوجد، والروعة، والسعادة.



(١٢)

الدهوش

تهافت دلال المفاجئ.. اهتمامها البالغ، لحد عدم المبالاة.. سكان العمارة، احتمال
يقظتهم الآن، في الليل العملاق المغلف بالسواد والضغائن، وحياسة المكائد، المصنوعة سرًا..
مكائد في الأدمغة.. وخلف جدران البيوت..

هذه هي نهايتي..

لكنني لم أعرف بعد، بأية مكيدة سوف أقتل.

حتى الآن هم يناورون، يشاغبون.. يتناثرون ويملئون الدنيا من حولي بمشاعر
الغضب..

انتظرت أن يدقوا الباب.. على أنني لن أفتح لو دقوا.. سأتركهم يحطمونه ويدخلون،
فسوف يجدونني قاعدًا أنتظر.. تبادر إلى ذهني المنذعر، شكلهم وهم يمزقون بدني.. فانكملت
مرعوبًا.. فكرت في تواجد دلال بعراء السطح، إمكانية تحمل جسدها لبرد الليل والظلام..

كان الصمت قد أطبق على الكون المحيط، فازددت انكماشًا.. أرغب الآن، بشكل ملح،
لبيتي القديم. لطفلي، لساعة واحدة قبل انتهائي، .. انتظرت أن يدقوا الباب.. لم يفعلوا.

أيمكن أن يكونوا قد شهدوا موقع اختبائها، وأخذوها.

أبهذه السهولة تؤخذ هي؟

هل قتلوها في صمت؟

هي بالسطح وأنا بغرفتي، كيف يفعلون؟

يمكن فعل ذلك لو وجدوني ملتصقًا بها، بأغوارها، حقًا.. إنني لم أدخل بعد بأغوارها،
لم أعرف خباياها.. يقولون إن جسدها أبيض كالرخام، وأن كنوزها لم تفتح بعد، لأحد.. لأنها
لا تعرف بعد أين تكمن هذه الكنوز..

هل بإمكانني كشفها؟ تلك الكنوز، أين ترى تكون؟

في منطقة ما من الصدر؟ كعبي القدمين؟ في العنق؟ أعلى الكتف؟ بسلسلة الظهر؟
خلف الأذنين، فوق الجفنين؟

لو تدركها اليد.. تفرع أبواب الوجد الغافي، الشيق المطمور، تفتح أبواب الحب.

هل تفتح لك أنت دون الأقطاب؟



أليسوا هم أول الفاتحين؟ وإن لم يكونوا فهم أراذل الرجال، سوف أكشف هذا المستور،
وليكن بعد ما يكون..

لكن في العشق مهانة، استفزاز.

لماذا الآن؟ في الليل العملاق .. تتهاقت؟

في العشق استنزاف لدم البدن، لخلايا المخ، بشكل دائم.. أيمن أن تكون هي آخر
مصاصي نخاع الظهر؟ كنت أمارس، في الزمن الفائت حق الزوج المشروع تحت ستار
الواجب، بقلة، حتى لا أفقد ذاتي،.. أقتل في الرأس المهموم بزحام الأفران والثلج السائد،
وتحديد إقامة ناس خلف صفائح أكواخ مثقوبة، الشوق إلى الجسد المتواري يؤرقني، والخوف،
فأصب مخاوفي على أوراق منثورة على مائدة حبلى بهمي.

همي الأوراق الآن والأقطاب.

أمرشدة هي تختبئ وراء شبق الجسد؟ متواطئة معهم؟

تود قتلي، خلية بعد أخرى؟ قالت لن يستطيعوا قتلك.. وسوف تقتلني هي.

لم يدقوا الباب، وكان الصمت..

أقابعون هم هناك؟ أتسربت هي تاركة إياهم لي؟

تقاربت جدرانني، والكتب، تقاربت، .. تضاءلت في داخلي .. تعثرت أنفاسي.. تفت

لشيء من هواء نقي، للسطح، للعالم، لبيتي القديم..

أما زالوا قابعين هناك؟ أما تراهم ذهبوا؟ أم أنني تخيلت أنهم كانوا قادمين؟

شغلت نفسي بجمع الأوراق المتناثرة، تلك التي لم تجمعها دلال، أوراق لم أقرأها
بعد.. لمحت عيني رداءة الخط المتعرج العجوز، يتوكأ على السطور.. أنا الإنجليزي..

أسرعت بسد ثقوب الباب بقطع من هذه الأوراق.. لعنت نفسي فاقد القدرة على
المواصلة.. الأوراق بيدي تنقب رأسي.. إن لم تكن تعرفني فاسأل عني، .. أنا منظم هذه
المنطقة، جدي أخذها ونحن ورثناها.. قال لنا قبل أن يموت. ابنوا عليها بيوتاً، وأنجبوا
الأطفال، أطفالاً كثيرين، ولا تجعلوا أحكم عرضه للضاربين.. اربحوا المال من حيث
يكون.. ألا تتعبوا.. أجعلوا الأندياء منكم خداماً لكم.. وعليك أن تعرف، أن أيدي رجالنا
متوقفة عنك بأمرنا، لأنك أحد المرشدين الفاشلين، العاملين لحساب ضابط يعيش في ماء
البطيخ، لم يعرف بعد من نكون، لم تدركه، بعد، شفرات مطواة الرجال، لم تترك بوجهه
خدشاً، ليعرف الناس أنه ضابط سفيه، وخائب، لم يستطع أن يميز بين الأهل والعشيرة.. نحن



الرجال الذين باعوا ضوء القمر، في ليالي القمر.. واشتروا الحياة بعد العام الواحد والثمانين، حين كان البيع والشراء متاحًا.

ليس هذا هو المهم، الآن.. بل الأهم، هو قتلك، منحك فرصة، للعودة إلى السجن أولاً، أمنحك الفرصة الآن لترقية ضابطك. فالهلباوي.. هو ..

وكنت قد نقلت تلك الرسالة على ورق من عندي بشكل يناسبني، ولم أستطع تكملة بقيتها. لأن الكماله هي مجرد أكاذيب، وزيف، فلا يمكن أن يرشد علي الإنجليزي على أخيه الهلباوي، ومن ثمة، لا يمكن للهلباوي أن يرشد عن علي..

وأنا لست مرشدًا. ما أنا إلا مجرد منفعل.. وسوف يموت انفعالي بعد قليل..

فتحت بابي، والفجر لا يزال معلقًا فيما بين السماء والسطح، رمادي اللون، يغزو الأركان، ويتكاثر بضباب آت من بعيد، لم أعر لوجودهم، لو كانوا هنا.. أي اهتمام.. إلا أنهم لم يكونوا هناك.. بحثت عنها برغبة متأججة..

سمعت صوتها يتردد عبر اللون الرمادي، فانتعشت برجفة، اطمأن.. لقد ذهبوا.

كنت أنطلع إليها، مصلوبًا، أيمن أن تكون قابضة كل هذا الوقت؟ لم أرد فاتجهت إلى غرفتي وهي بأثري.. وقد كتمت رغبة الشبق المطلقة من عينيها، رغبات الكلام..

توقفت كأنها تود الانتقام مني..

تعرينا..

غصت في أغوارها.. أغوار ابتلعتني ، ابتلعتني.

أحسست بأنني أنتهك حرمان الأقطاب..

أفعل ما لم يقدرُوا على فعله.

فقد قالت لي عندما خرجت من أغوارها.

- أنت شيطان خطير.

اقشعر بدني حين قالت، بأنني أشد شيطنة من الأقطاب!! وأنني قد انتصرت عليهم..

لو كانوا هم مرسلوها إلى هنا.. قالت:

- يجب أن تعيش لأجلي.

تناسيت كل شيء تقريبًا، قلت:

- أنت أكثر حلاوة مما كنت أتصور..

كانت الشمس تتسلل عبر النافذة وتلامس وجهينا، قامت تقول:



- إنهم عيال يلعبون بالنار.

- سوف يحرقونني بها.

ممدد على فراشي.. ينتابني شعور لذيق، شعور بالاسترخاء ورغبة في النوم.

قالت:

- يحسبونك مرشداً..

تثاءبت ولم أفكر في خطورة ذهابها في عز الصباح، تثاقلت تلافيف رأسي، قالت:

- كنت أفكر فقط في كتابة حكايتهم..

لم أستطع في هذا النهار الجاثم كتابة كلمة واحدة، استغرقت في نوم لذيق..

حين صحت، انتظرت قدومها مساء، موقناً بأنها مجندة من قبلهم، لقتل خلايا رأسي،

أحقاً يمكن فعل ذلك معي؟

بكل هذا العنفوان والعنفوان والعشق تقتلني؟

وجدت أوراقاً جديدة فوق وسادتي .. مكتوبة خبط رديء تفيد بأن الهلباوي يدلني على

عملية تهريب كبيرة سيقوم بها علي الإنجليزي .. فضحكت، وألقيت بالرسالة جانباً، وانتظرت

دودي، لم تأت.. فنمت.. وحلمت بأنني أضاجعها ونمت.

وفي الصباح حملت أوراقتي، وهبطت الدرج ببطء .. لم أعد أريد سواها.. فقط هي.. دودي.

وقفت في منتصف الشارع ، ممسكاً بأوراقتي..

خرجوا عليّ من كل زاوية. وكأنهم كانوا يراقبونني..

تجمعوا حولي .. وأنا أقول صائحاً:

- صدقوني .. إنني واحد منكم..

النفوا حولي .. سد خانة، تحت أبط، رامبو، السوري، نسوة ورجال، فتيات وصبيّة،

خلعت لهم قميصي.. كشفت عن صدري..

- ها هو أنا أمامكم .. اقتلوني.. لقد أخطأت في حقكم فاقتلوني ..

قالوا:

- لن نقتلك..

نثرت أوراقتي عاليًا .. تطايرت.. ثم تساقطت فوق رؤوسهم، وتحت أقدامهم المتقاربة.

تمت. ١٩٨٧ إسكندرية

